20me. année No 996

Le Caire 4 - 7- :1:

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٣٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٩٩٦ «القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ ذى القعدة سنة ١٣٧١ — ٤ أغسطس سنة ١٩٥٢» — السنة العشرون

وأخيرا ظهر القائد المنتظر!

كانت بلية مصر العظمى أن تزعمها نفر من المحامين صناعتهم الجدل، وبضاعتهم الوعود، ووسيلتهم الخطب، وغايتهم المناصب. أكثرهم يقولون الحق ويفعلون الباطل، ويذكرون الأمة ويريدون الغنيمة؛ وأقلهم يطلبون التحرر، ويرغبون الإصلاح؛ ولكن قصاراهم أن يخطبوا ما أسعفهم الريق، وأن يكتبوا ما واتاهم المداد، وأن يتظاهروا ما أمكنتهم الفرص، وأن يهتفوا ما أطاعتهم الحناجر! ثم احترف الطاعون منهم الدفاع عن القضية الكبرى لأنها أوفر ربحا وأيسر كلفة، فكان من غرضهم أن تمرض، ومن مصلحتهم أن تطول! ثم انقلب هؤلاء المحترفون صيادين فى بحر زاخر بالخلاف والفساد والفوضى، بعضهم يطمع فى اللآلئ، وبعضهم يقنع بالجيف؛ والشعب الظلوم المحروم يصارع الأمواج الزعن، ويجابه الصخور الصم، ويستغيث فلا يرى إلا الشباك الجارفة تغرق أشلاءه وتجمع أسلابه! وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ويحسب كل عامة خاصة نشأته جدودنا العواثر تنشئة الوارث العابث المتبطل، فلم ينل ما يناله الإنسان العادى من التربية والتعليم، وإنما ثقفه الفراغ فى الرأس والنفس والضمير ثقافة الفجار من أمراء بيته، فصاد الطير وقاد السيارة ولعب الورق وأطلق المسدس!

كانت غاية همه أن يغنى وأن يطغى وأن يحكم. ولم تكن غايته من الغنى أن يخفف شدة الفاقة عن رعيته، ولا من الطغيان أن يكفكف شِرَّة الحزبية عن أمته، ولا من الحكم أن يوجه سير النهضة فى بلاده. إنما كانت غايته من هذه الرغائب الثلاث السرف والترف والفحشاء والتكبر والبغى!

تناصر هذا الملك اللاهى وأولئك الساسة المحترفون على إذلال هذه الأمة ففرقوا كلمتها، وعوقوا نهضتها، وبددوا ثروتها، وسوأوا سمعتها، ودفعوا بها إلى هوة من هُوى الفساد لا سبيل بها لنجاة، ولا بصيص فيها لأمل. فلم يكن بد من أن يظهر فى مصر مصطفى كمال ليعيد الروح إلى الجسد الميت، ويرد الكون إلى النظام الفاسد! وما محمد نجيب إلا الرجل الذى ادخره الله لهذا اليوم لتنكشف به غمة، وتحيا بفضله أمة، وينصلح على يده عهد، ويبتدئ باسمه تاريخ! وإن مصر التى حلمت به كثيرا فى ليلها الطويل، وانتظرته طويلا فى سجنها المظلم، لترجو منه أن يكون لها ما كان كمال من تركيا: يطهر الحكم كما طهر المُلك، ويرفع الشعب كما رفع الجيش، ويقيم الدولة والحكومة والأمة على أسس جديدة من الخلق الفاضل والعدل الشامل والخير المحض والعلم الصحيح والعمل المثمر لا يثبت عليها دجل، ولا ينفق فيها غش، ولا يتطرق إليها فساد

لقد كان فرعون المطرود قادرا على أولئك كله لو أراد؛ ولكن الله الذى يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، لم يرد هذه النعمة إلا لمحمد نجيب. فلتكن إرادة الله!

احمد حسن الزيات

الحاجة إلى الجذور

للدكتور عمر حليق

في تراث الماضي ورواسخه ذخيرة من الطمأنينة الروحية جيلنا المثقل بالأعباء في حاجة إليها . وفي النفس رغبة ملحة لأن تعادل في نباهة بين ما تتشوق إليه في الحياة اليومية من هناء وطمأنينة واستقرار ، وبين ما يكتنفها من قلق وفتنة وتشويش مبعثه تسيار الحوادث وطبيعة التيارات الفكرية التي تعصف بالمرء في طور الفتوة العقلية في حاضر جيل كجيلنا مشحون بشتى أنواع الصراع

فهذا الجيل عجيب بين أجيال التاريخ . ولد في أهوال الحروب، ورضع من دم الثورات ، وشب في عهود الفتن والانقلابات ، وفي عواصف الفوضى الثقافية والعاطفية التي تنقلها إليه مواصلات فكرية سريعة ربطت أركان المعمورة بعضها ببعض فأصبحت كالدف تنقر عليه من أي ناحية فينقل الصدى إلى السامعين

وقد فرض على هذا الجيل مسؤوليات جسام ، فوجد نفسه مشوش التفكير موزع الأهواء ، فقد اتسعت مداركه بالعلم الحديث وازدادت إحساساته بالتجارب فأصبح يبحث عن استقرار وحرية وانطلاق ، لا كترف يزين به رجولته ، ولكن كمعول لتحقيق الطمأنينة في مفاهيمها العديدة — اقتصادية وسياسية وثقافية — لعله مستطيع تلبية حاجاته ، وهي تفوق في ماهيتها وكميتها حاجات الأجيال السابقة

وفي إبان يقظة هذا الوعي يواجه جيلنا ألوانا من المغريات فينساق معها المرة بعد المرة راميا بمسؤولياته إلى الجحيم، ولكن سرعان ما تجذبه هذه المسؤوليات إليها في عنف وشدة لتذكره بأن المغريات في هذا الجيل لا تنال اختلاسا ، ولا تستطيع أن تمنح المتعة الحقة إلا إذا توافرت أسبابها الاقتصادية وأوساطها الاجتماعية ودون ذلك ستائر كثيفة نساجها من مقدمات البيئة وتركز الثروة وسوء توزيعها ، وما أولدته من أنظمة الطبقات واختلال الميزان الاجتماعي وما نتج عن ذلك من كبت للمواهب وقضاء على الفرص والإمكانيات ، وكل هذه عقبات منيعة لا مفر لجيلنا المدرك لحقوقه وواجباته أن يجاهد للتغلب عليها

وفوق هذه المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مشكلة أهم يتخبط فيها جيلنا حين يحاول أن يوفر للنفس ذخيرة ثقافية تعينه على مواجهة هذا التحدي . فبين النفس واستقرارها فوضى ثقافية تسربت إلى جيلنا من بلبلة برامج التعليم وتنوع الغذاء العقلي والروحي الذي يغزونا من كل الجهات ، من تراث الماضي وقوته التي تهيمن على بيئتنا وتكويننا الخلقي ، ومن تيارات الحاضر وهي تيارات فيها من عناصر التشويش والتناقض ما يفرض على عقولنا وإحساساتنا صراعا لا رحمة فيه ، ندفع إليه مسيرين لا مخيرين رغبة منا في أن نحقق لأنفسنا نهجا في السلوك وسبيلا إلى الطمأنينة تتناسب مع ما تشبعت به عقولنا وعواطفنا من مبادئ وما تولد في أنفسنا من حاجة إلى العيش الشريف في عالم تشعبت مطالب العيش فيه وازدادت في مجال الموازنة مع مطالب الأجيال السابقة

هذا والكثير من أشباهه بعض ما نواجهه من تحد . ومن ثم ألمت بشخصية جيلنا ألوان من القلق وضروب من المسؤوليات تفرض عليه أن يجد لمواجهتها حلولا سليمة

فمنا من ينساق إلى مغريات التطرف فيثور على النظم والمجتمع وبيئته وثقافته ، ويعتقد بأنه واجد الخلاص في اعتناق هذه النظم والمبادئ المتطرفة التي يخيل إليه أنها ستوفر لأزمته أقرب الحلول وأقصر المسالك . وتاريخ الإنسانية مليء بهذا النوع من أفراد المجتمع الذين يسأمون من بطء التطور ، فيلجأون إلى التغلب عليه بسلاح التطرف في العمل والتفكير

ومنا من ينكر على جيله تعدد المطالب وتشعب المسؤولية ، فيختار العيش في الماضي المحافظ ويمتزج امتزاجا كليا في تقاليده وتراثه وبيئته لعله قادر على أن يحقق مطلب النفس من الطمأنينة والاستقرار الذي يبدو له أن الجيل السابق والأجيال التي أتت قبله قد استطاعت أن تنعم بها

ولكن أكثرنا لا يرضى عن هذين الاتجاهين ، فهو لا يستطيع أن يعيش في الماضي المحافظ في عزلة عن تيارات الفكر والتطور الذي ألم بالحياة وبالمجتمع الأكبر . فكل شيء في الحياة

والمجتمع تلح عليه أن يواجه العصر بأسلحة العصر . ولكن أكثرنا مدرك كذلك بأن التطرف والثورة على النظم ليست كفيلة بأن توفر لهم ولقومهم ماهم فى عوز إليه من عدالة واستقرار

فالثورة والاندفاع المتطرف فى عالم تكتنفه الذئاب لا يحقق لجيلنا مايطمحون إليه من أسس ومبادىء إلا إذا ارتضى لنفسه ولقومه أن يصبحوا فريسة لطبقة من المجتمع أو لدولة من الدول التى تتحين ميلاد الأوضاع الثائرة فتزحف لتملأ « الفراغ » بدعوى حفظ الأمن والاستقرار . ولنا فى اختباراتنا واختبارات غيرنا فى كوريا وغير كوريا أمثلة وافية على ذلك

وحين يحاول أكثرنا فى صدق ونباهة أن يدفع عن نفسه القلق وأن يواجه مسؤولياته السياسية والاجتماعية والفكرية يجد نفسه تنزلق فى مسلك وعر .

ففريق يندفع إلى الاعتقاد بأن جوهر الإشكال هو توفير الحرية الديمقراطية خالية من سيطرة الذين ورثوها مع ماورثوه من مال وعقار . ومن ثم يتجه هذا الفريق إلى النشاط الحزبى مدفوعا إلى ذلك برغبة تلح عليه فى أن يصلح الأداة السياسية فيحقق لنفسه ولقومه العدالة والطمأنينة فى مفاهيمها العديدة ، واثقا من أن الحرية السياسية (على نحو ماتفسرها الديمقراطيات الغربية) ستوفرها له على أتم الوجوه وأحسنها . وهذا الفريق أميل إلى تجاهل العناصر الأخرى التى تشارك الحرية السياسية فى الأهمية والقوة

وفريق آخر يختار التفسير الاقتصادى لأزماته ومسؤولياته فيجد العلة الكبرى فى تركز الثروة وفقدان التوازن فى النظام الطبقى ويتحمس لاعتناق تعاليم « ماركس » وغيره من أبناء الشيوعية ودعاة الاشتراكية على علاتها . وهذا الفريق أميل فى المراحل النهائية إلى الشك فى صلاح هذا التفسير الاقتصادى منه إلى الثقة به . فأنبياء الشيوعية ودعاتها لم يتطرقوا إلا من طرف غير مباشر إلى ألوان العقد والمشاكل والمسؤوليات التى يواجهها جيلنا فى مجتمع عربى إسلامى هو بحكم البيئة والتراث والمقدمات وبفضل دوافعه الروحية والمادية يختلف فى أوجه عديدة هامة عن المجتمعات التى عالج مشاكلها ماركس وفلاسفة الاشتراكية الأوروبيون . ومثل هذا الفريق مثل الطبيب الذى يعالج أمراض المناطق الحارة بالأدوية والوصفات التى تعالج بها أمراض القطب المتجمد الشمالى . وهناك فريق ثالث يشارك أقرانه فى مواجهة التحدى وملاقاة المسؤوليات التى فرضت عليه ولكنه لا يسمح لنفسه أن تقتنع بأى حل من الحلول التى اقتنع بصلاحها الفريقان الآخران . فهو لا يؤمن بأن الحرية السياسية كما تبشر بها ديمقراطيات الغرب كافية وحدها لبناء المجتمع الجديد . فهذه الديمقراطيات نفسها ساعية لتطعيم أنظمتها بعناصر مستجدة من تطور الفكر والوعى فى الجيل الجديد . وهذا الفريق الثالث لا يستطيع كذلك أن يتجاهل العناصر التقليدية الراسخة — الدينية والثقافية والاجتماعية — التى تعيش عليها بيئته عندما يبحث عن الحلول فى تعاليم الشيوعيين والمبادىء والنظم الأخرى التى وضعها المصلحون لمجتماعتهم التى إن شابهت مجتمعنا فى وجه فإنها تختلف عنها فى أوجه أخرى

وفى هذا الفريق نزعة كامنة — سمها ماشئت دينية أو قومية تصر على أن يرعى تراث الماضى وذخيرته ، وهذه المقدمات والعناصر الخالدة التى تطفح بالروعة وتمتلىء بالطمأنينة والاستقرار فى عالم يكتنفه التفكك والعقد والأزمات الروحية والمادية

وهذه النزعة ليست لونا من الترف العقلى أو نوعا من المخدرات الروحية التى ما أكثر مايتهم بها الراغبون فى مواجهة التحدى فى ترفع من صرخات الاجتهاد الخاطىء للذين اعتقدوا بأنهم وجدوا الحلول لمسؤولية الجيل . بل الحق أن هذه النزعة ضرب من الاجتهاد الجاد للبحث عن معقل للإيحاء الروحى والفكرى لا ينضب معينه — وهو معقل لابد لكل من أحاطت به مسؤولية أو ألمت به أزمة من أن يلجأ إليه ليستمد منه القوة والشجاعة والرأى السديد

فجيلنا أشبه بالجيش المنهزم يواجه المعركة الفاصلة على حدود بلاده فهو لا يجد الحكمة فى أن يغامر بما تبقى لديه من قوة ومناعة ليظفر بجزء من عتاد الأعداء وذخيرتهم ليتسلح بها فى الموقعة الفاصلة ، بل الحصافة فى أن يجمع ما استطاع جمعه من ذخيرة وقوة محلية من طول البلاد وعرضها . فيقتلع أسلاك الحدائق وبوابات القصور وقضبان النوافذ ليصهر ويصنع منها سلاحا يتحصن فيه فى خندق مكين إلى أن يستعيد من بأسه ويجلد قوته الكامنة فى عزم شديد

وجيلنا في عراكه مع المسؤوليات الجسام التي تتحداه لا يستطيع أن يضمن لنفسه النصر إذا اختار المغامرة في المعركة الفاصلة فاندفع يجمع ذخيرته من فتات الآراء والمبادئ يلتقطها من أطراف الميدان الذي يسيطر عليه العدو اللاحق . بل إن طبيعة هذا العراك تفرض على جيلنا أن يختار لنفسه حصنا منيعا يجمع فيه ما استطاع اكتشافه من ذخيرة فكرية وتراث روحي من صميم المجتمع الذي نصب نفسه مدافعا عن حماه ساعيا إلى تحويله إلى مجتمع أفضل

فكما أن آلة الحرب في أزمنة الصراع لا يمكن لها أن تقتصر في استمدادها على ما تستورده من ذخيرة وعتاد وإنما تسعى جادة لإنشاء المصانع في أرض الوطن بعد أن تتيقن من أصناف المواد الخام المتوفرة في تربتها ؛ فإن عراك الجيل يجب أن لا يقتصر في استمداده على ما يستورده من بضاعة فكرية مصادرها عديدة وإلا كان أشبه بالجيش الذي يتسلح ببندقيات بريطانية رصاصها بلجيكي وطائرات روسية لا يصلح لإدارتها ما يتوفر لهذا الجيش من غاز معكر

فالمهم أن نعكف قبل كل شيء على إحصاء ما يتوفر لدينا من مادة خام — من بيئة ومقومات وتراث روحي — قبل أن نختار القوالب الفكرية المستوردة التي نطمع في أن نجهز بها أنفسنا وعقولنا لمواجهة مسؤليات الجيل

فبنا حاجة ماسة إلى الجذور ؛ جذور الفكر وأصول التراث ودعائم البيئة التي نشأنا فيها وطبيعة المقدمات الخلقية والثقافية التي يعيش عليها مجتمعنا

ومن هنا أخذ فريق منا يندفع باحثا عن همزة الوصل بين تراث الماضي وذخيرته ومسؤولية الجيل الذي نحن منه

وبفضل ذلك وجد كاتب هذه السطور نفسه راغبا في أن يشارك قراء الرسالة في متعة نعم بها في مطالعته لكتاب أصدرته المطابع الغربية مؤخرا لمؤلفة فرنسية شابة كلفها رجال المقاومة السرية في فرنسا إبان الاحتلال النازي أن تدرس الأسباب التي أدت إلى انهيار فرنسا السياسي والعسكري وتقلص الروح المعنوية بين الكثرة الساحقة من أبنائها ، وأن تستوحي من ذلك أسسا المجتمع الجديد الذي ألقيت مسؤليات تعميره على عاتق الجيل الذي هي منه

فجاء هذا الكتاب سجلا لكثير مما يسود حاضر هذا الجيل من قلق وانفصال ؛ وإيحاء صادقا لما تعتقد هذه الكاتبة القديرة بأنه عون على مواجهة مسؤولياته الجسام

وقد شغلت هذه المؤلفة سنوات طوالا بمعالجة موضوعها فلم تكترث للسل الذي كان يمتص حيويتها ولم تضع القلم إلا بعد أن أتمت البحث فتلقف الناس الكتاب وزحفت هي إلى القبر لترقد رقدتها الأخيرة

واسم المؤلفة « سيمون وايل » وقد توفيت عن (٣٣) عاما أما الكتاب فترجمة عنوانه « الحاجة إلى الجذور[١] » وهي الترجمة التي اختارها الناشر الإنجليزي

فلنصاحب هذا الكتاب في عدد الرسالة القادم

للكلام صلة **عمر حليق**

---

(١) النص الفرنسي L'Enracinement Par, Simone weil
الترجمة الإنجليزية The need for Roots ترجمة Arthur wills
من منشورات دار بوتمان بلندن العام الحالي

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة للمجلد الأول
من كتاب
وحي الرسالة
للأستاذ أحمد حسن الزيات بك
طبع طبعا أنيقا على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفا وهو يطلب من ادارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشا عدا أجرة البريد

خروج المتنبي من مصر

القسم الثالث

لحضرة صاحب العزة الأستاذ أحمد رمزي بك

سافرت فى آخر شهر أكتوبر سنة ١٩٥١ إلى خارج مصر لحضور اجتماع هيئة الأمم المتحدة ولم أعد إلا فى النصف الأخير من شهر فبراير سنة ١٩٥٢ لذلك تأخرت فى الكتابة عن رحلة المتنبي الذى لازمنى طول مدة إقامتى بعيدا عن مصر

ذكرنا فى المقالين الماضيين كيف قطع المتنبي المسافة بين الفسطاط ونخل فى مرحلة واحدة وكيف مدح الهجن البيجاوية التى حملته هذه المسافة الطويلة بقوله :

ولكنهن حبال الحياة وكيد العداة وميط الأذى

ولم يقف أبو الطيب طويلا فى نخل (١) التى تركها بعد أن مر بها ونفسه مملوءة بالفخر فقال :

فمرت بنخل وفى ركبها عن العالمين وعنه غنى

وسار من نخل حتى قرب من النقاب أو أشرف على ما نسميه اليوم رأس النقب وهو على حدود مصر الحالية . ثم نزل فى الوادى وسار شمالا فى القطاع الواقع الآن بين شرق الأردن ومصر والذى أصبح من أملاك إسرائيل . وانتهى إلى وادى تربان وهو واد ينزل من الحيمة إلى المنخفض الواقع فى هذا القطاع (٢)

ويظهر أن أبا الطيب المتنبي أخفى نيته واتجاهه فى السفر إذ يقول :

وأمست تخيرنا بالنقاب (٣) وادى المياه (٤) ووادى القرى (٥)

(١) ياقوت جزء ٨ صفحة ٢٧٤ يظهر أن القلعة المبنية فى نخل أنشئت فى عهد بعد سفر المتنبي والأغلب أنه فى عهد الأيوبيين أو اجداد دولة المماليك لا فى العهد العثمانى كما جاء فى كتاب الدكتور عباس عمار

(٢) جزء أول معجم ما استعجم صفحة ٣٠٨ ، قال أبو زياد هو واد بين مياه كثيرة وأنشد

نظرت بعصى سيل تربان نظرة هل الله لى قبل الممات يعيدها

وهو غير تربان التى قال عنه الأصمعى أنه بين مكة والمدينة

(٣) ياقوت جزء ٨ صفحة ٣٠٦

(٤) ياقوت جزء ٨ صفحة ٣٧٦

(٥) ياقوت جزء ٨ صفحة ٣٧٥ — صبح الأعشى جزء ٢ صفحة ٢٩٢

ويقصد بوادى المياه ووادى القرى الاتجاه جنوبا إلى الحجاز بدلا من الاتجاه شمالا إلى الشام وأخذ طريق الكوفة . ويظهر أن شمال الحجاز كان عامرا فى عصره بدليل ما جاء فى كتاب ذيل الأمالى صفحة ١٢١

ولما علوت الابقى لشرقت قلوب إلى وادى القرى وعيون

كما جاء فى كتاب الأمالى صفحة ٢٩٩ جزء ٢ شعر جميل

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى القرى إنى إذا لسعيد

وجاء فى صبح الأعشى جزء ٤ صفحة ٢٩٢ أنه بضم القاف وفتح الراء المهملة وألف فى الآخر جمع قرية



الطريق الذى سلكه المتنبي

قال :

فى الروض المعطار : وهى مدينة كثيرة النخل والبساتين والعيون بها ناس من ولد جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه وهم الغالبون عليها وتعرف بالواديين ، والذى أخبرنى به أهل الحجاز أنه كان بها عيون كثيرة عليها عدة قرى تخربت لاختلاف العرب، وهى الآن خراب لا عامر بها ولو عمرت أغنت أهل الحجاز

جميعا عن الحيرة من غيرها

ولما صعد المتنبي الهضبة القابلة ووصل إلى وادي تربان باح بما يجول في صدره وقال أين أرض العراق كما جاء في شعره :

وقلنا لها : أين أرض العراق؟ فقالت ونحن بتربان : ها

وجاء في ديوانه أنه حينما صعد النقب ومر بتربان وفيه ما يعرف بغرندل فسار يوما وبعض ليلة ونزل

وغرندل (٦) هي من المحطات التي قيل إن بني إسرائيل مروا بها بعد عبورهم البحر الأحمر — ذكر عنها صاحب كتاب Palestine under Muslims أنها كانت مركز أسقفية تحت اسم أرندلة وكانت واقعة على الطريق الروماني الذي يوصل إلى ايلياء (العقبة) الحالية

ومن المدهش أنه بمجرد قيام حرب فلسطين ودولة إسرائيل انقطعت المواصلات التليفونية بين مصر وسائر البلاد العربية ثم انقطعت الطرق البرية بين مصر والحجاز وشرق الأردن حتى الطريق الذي سلكه أبو الطيب المتنبي لم يعد بوسعنا أن نسلكه فكان أن أصبحت إسرائيل في النهاية تتحكم في مواصلاتنا

وتدل الأبحاث على أن هذه المنطقة بالذات كانت مسكونة بقبائل من العرب من معن وبني فزارة وسنبس (٧)

وقبل وصوله إلى هذه المنطقة تلقاه رائد من بني سليم سار معه حتى وسط بيوتهم آخر الليل فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء وذبح له. وسار من غده فنزل بين بادية معن وسنبس وهي التي كان الوزير الناصر أبي محمد اليازوري الفاطمي يخشى قوتها وكانت تسكن حول غزة ثم انتشر نفوذها بعد ذلك وأخذت تقلق بال الفاطميين ثم انتقلت مع غيرها من بلاد الشام إلى مصر ومنها إلى المغرب. وقد ذكر الدكتور عباس مصطفى عمار أن مواطنها حول غزة. وجاء في ديوان أبي الطيب أن منطقة نفوذها امتدت إلى الجنوب فشملت الأجزاء المحيطة بالعقبة

ومن هذه المنطقة أي بين تربان وغرندل التي بجوارها أذرع والجيمة وهي مناطق معروفة بالتاريخ في القرن الأول الإسلامي وكان يسكنها طوائف من الطالبيين أبناء علي بن أبي طالب ومن العباسيين سلالة العباس طول عهد الدولة الأموية وذلك لما كانت عليه هذه المناطق من الخصب وكثرة المياه ، وليسكن أبناء أبي طالب والعباس بذريتهم وتراثهم على مقربة من دمشق وبعيدين عن شيعتهم في العراق والحجاز فيسهل على الدولة مراقبتهم وتقصي أخبارهم

ويخيل إلي أن أبا الطيب كان غير مطمئن لسلامته إذا اتجه مباشرة إلى شمال الحجاز عن طريق العقبة نظرا لما يعلمه من تحوط كافور واتصاله بعربان هذه المناطق . ويقول الديوان إنه بعد أن أمضى ليلته في هذه المنطقة من أرض الشراة اتجه إلى جبال حسمى وواجهته رياح الحجاز وقال في قصيدته :

وهبت بحسمى هبوب الدبور مستقبلات مهب الصبا

وجاء في ديوانه ذكر إرم وهو اسم علم لجبل من جبال حسمى من ديار جذام بين العقبة وتيه بني إسرائيل . وهذا الجبل عال عظيم العلو تزعم أهل البادية أن فيه كروما وصنوبرا ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد كتب إلى زعماء قبيلة جذام أن لهم جبل إرم لا يشاركهم فيه أحد ولا يحاقهم فيه غيرهم

وفي ديوان المتنبي أن امتداد جبال حسمى مسيرة ثلاثة أيام طولا في يومين عرضا ويعرفها كل من يمر بها، وقد وجد أبو الطيب في حسمى بني فزارة وفيهم أولاد لاحق بن مخلب فنزل بينهم لأن أمير فزارة حسان بن حكمة كان بينه وبينه مودة وصداقة . وبهذا تحقق ما كتبه قبل ذلك من الشعر وهو بمصر إذ قال :

إذا سرنا عن الفسطاط يوما خلفي الفوارس والرجالا
لتعلم قدر من فارقت مني وأنك رمت من ضيمي محالا

السلام جية

أحمد رمزي
المدير العام لمصلحة الاقتصاد الدولي

راجع الرسالة عددي ١٩٥١

(٦) معجم البلدان ٥، ٣٩ جزء • يقول عنها قرية في أرض الشراة

(٧) جمهرة أنساب العرب ص ٣٧٨ — من طيء — سنبس بن معاوية من بني ثعل من سنبس معن بن قيس بن عائذ بن جريد ورأس الخوارج يوم النهروان — الخليل بن زيد غرق يوم جاز المسلمون دجلة إلى المدائن . منهم الحورجان بن مخصب دليل خالد بن الوليد من العراق إلى الشام عنزوا بادية السماوة قبل معارك العرب ضد الفرس

هل المسيحية فى ازدهار ؟

للأستاذ عبد الكبير الفاسي

هذا سؤال إذا اكتفينا فى الجواب عنه بقبول ما يرد علينا فى الإحصائيات على علاته ، أجبنا عنه بالإيجاب ، لأن الإحصائيات تزعم أن عدد المسيحيين فى اطراد . على أنها تعتبر سكان أوربا كلهم مسيحيين كما تعتبر سكان أمريكا — جنوبا وشمالا كذلك مسيحيين . والإحصائيات لها منطوق ومفهوم وظاهر وباطن ، ومن شأنها أن تصلح دليلا المثبت مادام لاينفيها ناف يريد أن يثبت خلاف مايدعيه المثبت .

والعبرة فى كل شىء ليست بالعدد وإنما هى بحقيقة الواقع فى الشىء المعدود ؛ فإذا كانت المسيحية كثيرة الأفراد فإن المسيحيين قليلو المسيحية . وبعبارة أخرى فإن من يعتبرون فى عدد المسيحيين سواء فى أوربا أو فى غيرها لاتسيطر المسيحية على أكثريتهم إلا بقدر ما تسيطر عليهم التقاليد والعوائد ، بحيث أصبحت المسيحية فى كثير من الأقطار ظاهرة اجتماعية أكثر منها معتقدات فلسفية وتعاليم وأخلاقا

والناس طبقات ، وأظهر هذه الطبقات طبقة المالكين وأصحاب رؤوس الأموال وطبقة العاملين لهم وهم العمال والأجورون

فالطبقة الأولى ، وهى طبقة رؤوس الأموال ، لا ترى فى المسيحية إلا إطارا يحسن فيه إقامة المهرجانات الاجتماعية من زواج ودفن . وتتباهى فى تلك المهرجانات ولا تتردد فى الإنفاق عليها .. ثم إنها إلى عهد قريب كانت ترى فى الدين أداة لتسكين غضب العامل والأجير والفلاح لما هم فيه من بؤس وشقاء ؛ وترغيبهم فى حياة الآخرة بما فيها من نعيم يعوضهم مالم يدركوه من أنواع الخير والنعيم فى هذه الحياة الدنيا . غير أن طبقة العملة استيقظت من سباتها وأدركت أن الدين شىء ، وماهى عليه من بؤس وشقاء شىء آخر . وأن الدين ، الذى هو إيمان وصلوة ورجاء ، لا ينبغى أن يكون ذريعة لأصحاب رؤوس الأموال يتوسلون بها إلى استغلال عملهم الشاق المضنى لجمع مال وتنميته ينفقون جزءا تافها منه على تشييد الكنائس وإقامة الصلوات ويتركونهم يعيشون هم وأولادهم فى بؤرة الشقاء والمرض والبؤس

ولم تحصل هذه النتيجة فى عقول العامل والفلاح والأجير بتعاليم الاشتراكية والشيوعية طيلة القرن التاسع عشر فحسب ، بل كان الفضل فى ذلك لانتشار التعليم أولا ، وافتضاح الطبقات المالكة . وافتضاح الكنيسة الكاثوليكية الأخلاقية والمالية . بحيث أصبح العامل والقروى لايغرهما بهرجة الدعاية وجمال المظهر وحسن الهندام ، إذ يعلمون أن من يعظون الدين لايعيشون دائما حسب تعاليمه وأن أصحاب رؤوس الأموال لا يتأثرون من الدين بشىء ، فسادت الظنون وتبع ذلك ماهو أكثر منه أى فرار أكثرية العملة من حظيرة الكنيسة .

وأحسن برهان على ذلك فقرات نسوقها للقارىء نقلا عن مجلة « إكليزيه » (Ecclesia) وهى لسان حال الكنيسة الإسبانية بقلم أسقف بلنسية جاء فيها :

« يتمنى العملة الإسبانيون استبدال الحكم فى بلادهم ، ولكنهم يجهلون بأى شىء يستبدلونه ، والعملة لايخافون الكنيسة ، وإنما يخافون رجال الجيش ويعتبرون ما يتقاضونه من الأجور لايدفع عنهم البؤس وإنما هم مرغمون على تقاضيه من طبقة المترفين . والعملة من وجهة العلائق الجنسية مع نسائهم ، ليسوا من العفة فى شىء : فالأعزب منهم لايريد الزواج ، والمتزوج منهم لايرى فى زوجه إلا أداة المتعة الجنسية ويعمل على ألا يكون له من زوجه ولد . ويلاحظ أن حديث العملة فيما بينهم أكثر مايدور حول النساء والشؤون الجنسية لا السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية . »

ويختم الأسقف كلامه قائلا : « لا يتورع العملة عن سرقة مستخدميهم كلما وجدوا لذلك سبيلا ، وذلك إما بالقيام بالعمل أقل مايمكن ، وأما باختلاس بعض الأدوات . وهم إذ يتصرفون هكذا كأنهم يقولون هذه بضاعتنا ردت إلينا ! وماذلك إلا لأنهم يجهلون وجود الله أو لأنهم ملحدون »

ذلك مايخص الشعب فى أمة تعتبر أعرق الأمم فى الكاثوليكية . ولا حاجة بنا لتعليق أو شرح إذ كلام الأسقف من حيث البيان

قد بلغ الغاية القصوى . وإذا كان الأمر كذلك فى مثل هذه الأمة فاذا يكون فى غيرها من الأمم التى اميت فى عقول أفرادها التعاليم الماركسية والماسونية التى سيطرت على التعليم فى كثير من البلاد الأوربية وفرقت بينه وبين التربية الدينية . فحالة المسيحية فى فرنسا لا تقل تحرجا عنها فى غيرها . فقد نشرت جريدة رجعية Carrefour كارفور فى عددها الصادر فى ٣٠ ابريل الأخير مقالا بقلم أحد مساعديها الاختصاصيين فى المسائل الدينية يقول فيه : « يمكن أن نؤكد من غير خشية الوقوع فى الخطأ أن فرنسا فى مجموعها تسير شيئا فشيئا فى طريق العدول عن الإيمان بالله .

وإذا كان جمهور أهل البوادى لازال يقدم أولاده لماء المعمودية ، ولا زال يتزوج ويقيم جنائز أمواته فى الكنائس ، مظهرا بذلك تشبثا ظاهرا بالكاثوليكية ؛ فإن مجموع سكان المدن إلا من شذ — وحتى أفراد الطبقة الوسطى منهم وقسط من طبقة البرجوازية العليا — كل هؤلاء أصبحوا يعتبرون الكاثوليكية كتحفة أثرية وعقيدة عتيقة دخلت فى حكم التاريخ لاحاجة بالناس لإضاعة الوقت فى مناقشاتها والجدال فيها . والخاصة فى كل وسط من الأوساط الاجتماعية هى التى عدات عن الإيمان بالله ، وهى التى قطعت علائقها بالكنيسة الرومانية متوجهة نحو العلم والرقى العلمى ، ونحو جميع الأوثان المزيفة التى نصبها العالم الحديث ، وبذلك يحاولون تحقيق أهدافهم الإنسانية على أكمل وجوهها »

وبعد أن أطال الكاتب وأطنب فى تصوير هذه الحالة التى تعتبر من صفحات الكاثوليكية السوداء فى العصر الحاضر ، زاد قائلا :

« أخذت فرنسا تبتعد عن المسيحية منذ القرن الثامن عشر الميلادى ، وقد أصبح إغراقها فى الإلحاد فى الوقت الحاضر فى أقصى درجة ممكنة ، ويشمل ذلك عددا كبيرا من الفرنسيين ، وخصوصا أفاضلهم ممن ينعتون بكونهم محافظين وممن عرفوا بانتمائهم للنظريات التقدمية

نعم إن الكاتب يقول بعد ذلك إن هناك رد فعل لانزاع فى وجوده من طرف الكاثوليكيين وخصوصا من الشباب لاسترداد ما فاتت الكنيسة من تأثير على النفوس ، ونحن كذلك لا نناقش فى هذا لأن الكاتب متفائل كل التفاؤل ونرجو أن يكون موفقا فى تفاؤله وأن تتوج تلك الجهود بالنجاح أو ببعض النجاح

ويختم مقاله المتشائم فى بدايته المتفائل فى نهايته بقوله : إن كنيسة فرنسا تتمتع بصحة جيدة !

ونحن لا يسعنا إلا أن نبارك هذه الصيحة ، لولا أننا فوجئنا بكتاب كتبه الراهب مونتوكلار عنوانه : الحوادث والإيمان (١) ، صادرته الكنيسة الكاثوليكية بعد ظهوره وحرمت قراءته على المسيحيين نظرا للأفكار التى يتضمنها والتى تعتبرها أفكارا ثورية ، وهذا الراهب من أولئك الرهبان الأذكياء الذين عرفوا أن من بواعث انتشار الإلحاد والكفر والابتعاد عن تعاليم المسيحية ، كون من سبقوهم فيها — وخصوصاً منذ فجر النهضة الصناعية فى أوائل القرن المنصرم — لم يكونوا فى صفوف العملة والفلاحين ، بل كانوا فى جانب الرأسماليين يباركون فى تصرفاتهم فى استغلال المال والعملة، وكانت الكنيسة الكاثوليكية كلما قام من بينها ومن بين رجال الفكر والمنتمين إليها من يندد بأعمال الرأسماليين ويدافع عن العملة مثل الأب لكوردير Tacordaire والأب لامنى Lomenais وغيرهما تقاومه وتحرم النظر فى كتبه لأنها تشتمل على أفكار وآراء تعتقدها مخالفة لتعاليمها وقدقام فى فرنسا بعض صغار الرهبان ، وأغلبهم من الشعب ، وأخذوا على أنفسهم التقرب من العامل والفلاح لدرس حالته أولا وإعانته فى شدته وضيق عيشه والدعوة إلى رحمته ليخرج بذلك مما هو فيه من بؤس وشقاء . وإذا خرج من ذلك ابتعد — فى نظرهم — كل البعد عن حظيرة الشيوعية. ولقبهم مناوئهم — بالآباء الحمر — لكونهم يعيشون فى أوساط العمال ويعيشون عيشتهم ، ومنهم من يخدم فى المعامل . وإذ كان عددهم الآن قليلا جدا لكون الكنيسة لا تنظر إليهم بعين الرضا — فإن أثرهم ملموس فى أوساط العمال الذين يحسون منهم بصدق وإخلاص فى المأمورية الإنسانية التى يهدفون إليها

والعجب كل العجب أن بعض هؤلاء « الآباء الحمر » قد توصلوا فى درسهم حالة العمال إلى نتيجة هى نفسها النتيجة التى

(١) Les Evénements et la foi R P Montuclard

توصل إليها الباحثون قبلهم من أصحاب النظريات الاقتصادية في كل زمان ومكان ، وهي أن مسألة العمال والفلاحين — أو ما نسميه العدالة الاجتماعية — تحتاج إلى قلب النظام في الاستهلاك والاستغلال وإعادة النظر في توزيع الأراضي الخ — وهم بوصولهم لهذه النتيجة كأنما كانوا على موعد عندها مع مفكرى الماركسية - أحبوا ذلك أم كرهوه ! ولذلك فإنهم يسخطون الكنيسة والرأسمالية على السواء غير أنهم لا يخشون في الحق لومة لائم وإن كانوا منقادين لأوامر الكنيسة

ولكى تعرف رأى أحد هؤلاء « الرهبان الحمر » نأتى إليك بفقرات من الكتاب المذكور، يقول صاحبه ما نصه :

« لقد قضيت أياما من فصل الربيع الأخير مع جماعة من المبشرين فى بادية فرنسا فى أواسطها . وقد انسلخ سكان هذه الناحية تماما عن المسيحية بحيث لم يبق عندهم من مظاهر المسيحية إلا ما علق بتقاليدهم الشعبية وما هو ممتزج بخرافاتهم وأوهامهم التى تسود فيها معتقدات هى ألصق بالسحر من غيره . وكان حاضرا معى فى هذا الجمع عدد من الرهبان والخوريين يبلغ نحو العشرين ، فخصصنا يوما لدرس هذه الحالة وأمامنا سؤال واحد وهو : ما العمل لرد أهل هذه الناحية إلى حظيرة المسيحية ؟ فكان جواب الجميع أنه لا أمل لنا فى ذلك قبل قلب نظام توزيع الأراضى واستغلالها ؛ وهو نظام إنسانى يعيش فيه الفلاح وهو ينظر للحياة نظرات لا آفاق فيها »

ورغما عن كون هذه النظريات التى تشبع بها غير ما واحد من رجال الكنيسة ، وإن لم يتوصلوا كلهم لنفس النتيجة أى قلب النظام الحالى فى الامتلاك والاستهلاك ، فإن الرجعيين من الفرنسيين وخصوصا أصحاب الحزب الملكى المنتمين لأحد زعمائه وهو موراس — يقولون فى حكمهم على هذه النظريات : إن هذا دين جديد ، مخالف لما كان عليه دين آبائنا لكونه لا يقر الحياة التقليدية التى عاش عليها الفلاح منذ قرون وتكونت منذ قرون ، والذى يظهر من أمر هؤلاء الحواريين الصغار أن نظرياتهم لا تستند على كاثوليكية ولا على سياسة اجتماعية رشيدة ، وإنما مبناها أقوال الماركسية !

ولا غرابة فى هذا الحكم مادام مأتاه من قوم عرفوا بضيق الفكر وشذوذه فى كل شئ . والعجب كل العجب أن متزعم الحركة الملكية بفرنسا يقول بخلاف ما يدعيه من يزعمون الانتساب إليه ، وقد عرف عن لوكنت دوبارى أن له نظريات اجتماعية قد يرتضيها كثير من أحزاب العمال وهى مغايرة لكثير من نظريات أتباعه

ولكن الذى لا نفهمه هو أن كثيرا من المسيحيين المترددين أو المتحجرين الجامدين أمام القضايا الاجتماعية سواء فى فرنسا أو فى إسبانيا أو فى إيطاليا — لم يعتبروا بما وقع لروسيا التى ترددت كثيرا وجمدت ما شاء لها التعصب والجمود أن تفعل طوال القرن التاسع عشر ، وعلى رأسها أرستقراطية جبارة كانت تتصرف فى الأراضى وما عليها من رقاب تصرف السادات والإقطاعيين ، ولم تحاول حلا للمشاكل الاجتماعية بل لم يثبت أن قاداتها أعاروا أذنا لسماع شكوى العامل والفلاح مما كانوا فيه من أنواع البؤس والشقاء . فنفس جواب الرجعيين فى أوربا الغربية الآن كان يجيب به سادات روسيا العامل والفلاح ومن كان يتزعم حركتهما الإصلاحية مستندين فى ذلك على سوء فهم الدين ، وعلى تخدير الأعصاب الذى كان يقوم به رجاله الأجوررن . ولكن ماذا كانت النتيجة سنة ١٩١٧ ؟

إنها كانت الشيوعية التى اكتسحت نصف أوربا وبعضا من آسيا الآن ، والتى ستضطر الإنسانية لصرف جميع ماتملك فى مقاومتها مع عدم تحقق الغلبة عليها ، لأن القضاء على الخطر الروسى ليس هو القضاء على الخطر الشيوعى !

كانت الشيوعية نتيجة لتحجر المسيحية والمسيحيين ، وكانت روسيا هى أكبر الدول المسيحية مساحة وأكثرها عددا ولكن النتيجة هى ما نعلم

ولذلك لا نغتر بقول من يقول : إن المسيحية فى ازدهار ، بناء على الإحصائيات

على أن ما يقال فى شأن التأثر بالدين وتعاليمه والتهذب بأخلاقه ومبادئه فى حق المسيحية والمسيحيين ، قد يقال مع مزيد الأسف والحسرة فى حق الاسلام والمسلمين مع ما لابد منه من التفرقة التى تقتضيها الاعتبارات التاريخية والجغرافية والاجتماعية

عبد الكبير الفاسى

من آثار السيدة زبيدة

للأستاذ المغربي

قال محمد بن على العبدى للخليفة القاهر وقد سأله يوما أن يحدثه عن السيدة زبيدة : كان من فعل زبيدة وحسن سيرتها فى الجد والهزل ما برزت فيه على غيرها

فأما الجد والآثار الجليلة التى لها فى المملكة فهى حفرها العين المنسوبة إليها فى الحجاز . وتمهيدها الطريق لمائها فى كل خفض ورفع وسهل ووعر من مسافة اثنى عشر ميلا ، حتى بلغت بها مكة . وأنفقت عليها ألف ألف وسبعمائة ألف دينار . ولها كثير من أمثال هذا العمل العمرانى

هذا فى الجد . وأما فى الأمور التى تتباهى بها الملوك فى أعمالهم ، وينعمون بها فى أيامهم ، وتتزين بها سيرهم وأخبارهم . فهو أنها :

أول من اتخذ الآلة (أى أدوات البيت وأمتعته) من الذهب والفضة المكللة بالجوهر . وصنع لها الصناع الرفيع من الوشى حتى كان الثوب نحو خمسين ألف دينار

وهى أول من اتخذ (الشاكرية [١]) من الخدم والجوارى. يركبون الدواب ويغدون ويروحون برسائلها وحوائجها

وأول من اتخذ القباب على الهوادج من فضة وآبنوس وصندل ، لها كلاليب من الذهب والفضة ؛ وهى ملبسة بالوشى والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق . واتخذت النعال المرصعة بالجوهر . واصطنعت الشمع من العنبر . وقلدها أغنياء الناس فى ذلك جميعه

ولما أفضت الخلافة إلى ابنها (الأمين) قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ككوثر وغيره من خدمه ، فلما رأت أمه شغفه بهؤلاء الغلمان المماليك اتخذت الجوارى الحسان المقدودات [٢] وعممت رؤوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ [٣] والأقفية (لعله يعنى الشعور تجمع على القفا بشكل خاص مونق) وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق (وهى من ألبسة شباب الجند وغلمان العسكر) وأرسلتهن وهن بهذا الزى إلى ابنها (الأمين) فراقه شكلهن . وأبرزهن فى مجلسه أمام الخاصة والعامة . وشاع أمر هذا الزى فى الناس فجعلوا يتخذون الجوارى المطمومات (أى المقصوصات الشعور من طم الشعر إذا جزه أو قصه) ويلبسونهن ملابس الغلمان : من أقبية ومناطق ويسمونهن (الغلاميات)

وقد أكثر شعراء ذلك الزمن من وصف هؤلاء الغلاميات وفى طليعتهم أبو نواس

ويظهر أن اتخاذ هؤلاء الجوارى الزى المذكور لم يكن بواسطة اللبوس من الثياب وطم الشعر فقط بل يتعدى إلى تصفيف الشعر كما يفعل الغلمان وإلى تخطيط شوارب من المسك والغالية والعبير على الشفة العليا تقليداً للشوارب الطبيعية . وقد أشار إلى ذلك أبو نواس بقوله

حور طلعن مؤنثا ت الدل فى زى الذكور

أصداغهن معقربا ت والشوارب من عبير

والعبير أخلاط من طيب تداف بالزعفران ، فالجارية كانت تلبس لبوس الغلام وتخط على مواضع الشوارب خطا من العبير وفى لونه شقرة فيبدو كشارب الغلام أول ما يبدو وهو بعد أشقر أو أصفر، أما مواضع الصدغ من الجارية فلا يكون عليه شعر السالف مسترسلا أو سبلا كسوالف الجوارى وإنما هن يقصصن ذلك الشعر ويلوينه على شكل العقرب، أو لعلهن يكوين شعر الصدغ كما تكوى الشعور اليوم بحدائد خاصة . فالغلمان

(١) الشاكرية جمع (شاكرى) معرب (جاكرد) شاعت منذ العهد العباسى بمعنى الخدم ومنه اسم (الشاكرية) لضرب من الخناجر كانوا يتقلدونه

(٢) المقدود اسم مفعول من قد ـ قد السيف أى خلق حسن التقاطيع والمعنى أن قدود أولئك الغلمان كانت متناسبة فى الرشاقة تناسب نصال السيوف

(٣) المراد بالأصداغ شعرها . وجعلها لهن الأصداغ كناية عن عقربتها . أى لى شعرها على شكل العقرب كما فى قول أبى نواس (أصداغهن معقربات والشوارب من عبير)

درس مطالعة ..

للأستاذ محمد على جمعة الشايب

كان ذلك فى الحصة السادسة وقد تسربت أذهان التلاميذ من نوافذ المدرسة وأبوابها إلى منازلهم حيث يهيأ لهم طعام الغداء وحيث ينتظرهم أهلوهم وذووهم … وقد كانت سحابة من التعب تلوح على وجوه التلاميذ تظهر من ثناياها إشراقة خفيفة من الأمل فى الانتهاء من اليوم المدرسى وإلقاء هذا العبء الذى أثقل كواهلهم من أول النهار إلى منتصفه تقريبا ؛ فهم لذلك يستحثون عقرب الساعة كما يستحث الناس آخر يوم من رمضان. وكنت أحس أن آذان التلاميذ ظامئة إلى موسيقى الجرس الآذن لهم بانتهاء اليوم ومغادرة المدرسة، ولعلهم لو فطنوا لقرأوا فى وجهى من بين ثنايا هذه القوة المقتطعة من الضعف وذلك العزم المأخوذ من الإعياء مثل ما أقرأ فى وجوههم أو بعض ما أقرأ.. ولكنه التلميذ الذى يعتقد أن مدرسه من حديد لا يلحقه الكلال أو التعب ! وأن صدر النهار وآخره عنده سواء .. وكان موضوع الدرس هو « السلع الآدمية » من كتاب « المطالعة المختارة » المدارس الثانوية. وخلاصة الموضوع — ولا أثقل عليك — أن شابين[1] إنجليزيين جلسا فى حديقة منزل بإنجلترا وسرحا بصرهما فيما حولهما فوجدا من محاسن الطبيعة ومفاتنها ما يأخذ النفس إعجابا ووجدا الطيور تنتقل من غصن إلى غصن فى حرية وانطلاق ؛ بل وجدا كل ما فى الحديقة يدعو إلى الحرية والانطلاق. تذاكر الشابان أن الحرية حق طبيعى، ويجب أن ينعم به الناس فى الأرض كما تنعم به الطيور فى جو السماء، وأن شقاء الإنسان مبعثه الإنسان، وما يدعيه الغربيون من مدنية وحضارة ليس إلا ستارا يحجب عن الأعين كثيرا من الرذائل والوحشية. وعرضا لما يجرى إذ ذاك من تجارة الرقيق فاعتزم

(1) كان هذا فى أوائل القرن الثامن عشر وأحد الشابين هو : « وليم بت » وقد صار رئيسا للوزارة الإنجليزية، والثانى هو . « وليم ويلبرفورس » من أعضاء البرلمان الإنجليزى

كانوا يومئذ يتخذون من شعر أصداغهم كهيئة العقرب. والجوارى المتشبهات بهم كن يفعلن ذلك، فإذا نظرت إلى وجه الواحدة منهن أول ما يقع نظرك على أصداغ غلام وشوارب غلام. ومن هنا كثر فى لغة الغزل قول الشعراء معقرب الصدغ ومعقرب الأصداغ ولا يكون ذلك على ما يظهر فى الغزل بالغلمان الذين لهم على أصداغهم شعر ملوى ومثنى على نفسه بحيث يمثل لرائى عقربا أسود يلسع. أما الجوارى فليس لهن عقارب أصداغ، وإنما لهن أفاعى وحيات من ذوائبهن تتلوى على ظهورهن

فلما سمع القاهر من هذا الوصف تهلل ونادى بأعلى صوته اسقنا ياغلام على وصف (الغلاميات) فبادر إليه جوار قدهن واحد توهمتهن غلمانا بالقراطق والأقبية : والطرر والأقفية، ومناطق الذهب والفضة. فأخذ الكأس بيده وجعلت أتأمل صفاء جوهر الكأس ولألاء ما فيه، وحسن أولئك الجوارى الغلاميات، ولمعان الحربة التى بجانبه. ثم التفت القاهر إلى وقال :

قد سمعت كلامك وكأنى مشاهد للقوم حسبما وصفت وسرنى ماذكرت وفصلت

ثم أمر لى بجائزة أخذتها على الفور وانصرفت

هذا مارووه عن (محمد بن على العبدى) المتخصص فى علم الملوك كما شهد له بذلك المؤرخ المسعودى، وقد علمنا من مسامرته للخليفة (القاهر) وما أفاض به من وصف (الغلاميات) واسترساله فى هذا الوصف إجابة لرغبته الملحة علمنا منه أن هذا الخليفة لم يكن على ما يحبه له منصب الخلافة من عفة وصلاح وحسن سمت ووقار ؛ اللهم إلا إذا كان هذا من قبيل الدعابة التى أذن بها المأمون، فقد روى أن بعض جلسائه سأله :

هل تأذن لنا يا أمير المؤمنين بالدعابة، فأجاب :

وهل يطيب العيش إلا بها ؟

(الغربلى)

الشابان أن ينتشلا وطنهما من تلك الحمأة ويطهرا سمعة الأمة الإنجليزية من جريمة الرق المنكرة .. وقد كانت تجارة الرقيق في ذلك العهد قائمة على قدم وساق، فقد حدث أحد السائحين أنه رأى زنجيين يصيدان السمك في داهومي[1] وقد ملآ منه أسفاطا عدة؛ فسمعا وقع أقدام خيل مقبلة فتركا ماصاداه وفرا هاربين من تجار الرقيق الأوربيين، ولكن التجار أدركوهما وسلكوهما مع من معهم من الرقيق

وقد بر الشابان بوعدهما . ونشرا رأيهما في بلادهما، فصادف نفوسا تكره الظلم، ولم يمض قليل حتى هبت الأمة الإنجليزية كلها تنادي بالقضاء على هذه التجارة الخاسرة، وكانت إنجلترا أسبق الأمم إلى هذه الدعوة الكريمة ، ولم يكتف الشعب الإنجليزي بذلك بل جاد أبناؤه بأموال طائلة لشراء وطن في غرب إفريقية للعبيد المعتقين ثم تبعتها الأمم الأخرى في ذلك

لم أكد أفرغ من قراءة هذه الفقرات من الدرس حتى رأيت التعب قد طار من وجوه التلاميذ كما يطير النعاس عن عين المذعور، وأحسست أن أعصاب التلاميذ المتهدجة من الإرهاق قد شدت من فورة الحماس وأنهم قد صبت فيهم قوة الأسد المتأهب للوثوب، وأخذت أقرأ في وجوه التلاميذ وعيونهم الارتياب في صحة ما ينطوي عليه هذا الكلام، وأخذوا يمطرونني بوابل من الأسئلة؛ فمن سائل يقول :

إذا كانت إنجلترا حقا هي أول من نادى بإبطال تجارة الرقيق فلماذا هذا الاستعمار المسف ؟ وهل هناك فرق بين الاستعمار والرق في نظر إنجلترا ؟

وتطوع تلميذ بالإجابة عن هذا السؤال قائلا : إن الاستعمار أبشع وأشنع من الرق لأن الرق استرقاق أفراد ولكن الاستعمار استرقاق شعوب ، وقد يعتمد الرقيق على سيده في مأكله وملبسه ومطالب عيشه ولكن الاستعمار يستحوذ على أقوات الشعوب وكسائها بل يمتص دماءها . . والرقيق يشترى بثمن ولكن الاستعمار ليس كذلك .. ولكن كان محرجا حقا ذلك السؤال الآتي :

كيف يشتري الإنجليز وطنا في غرب إفريقية للعبيد المعتقين وهم اليوم يغتصبون الأوطان من الأحرار السودين بل وقبل اليوم بمشراب السنين ؟

وما إن انتهى التلميذ من إلقاء هذا السؤال حتى رمقته بنظرة الإعجاب ونظر التلاميذ إلي ينتظرون الإجابة وعلى شفتهم ابتسامة خبيثة ، وكأنهم فهموا أن المدرس يجب عليه أن يجيب عن كل سؤال حتى ولو كان السؤال لا يستطيع أن يجيب عنه البرلمان الإنجليزي ولا إيدن ولا تشرشل ... وشاءت المصادفات أن تمر في شارع المدرسة هذه الساعة دبابتان إنجليزيتان فتفزع الشارع بصوتهما الأجش الغليظ فينسى التلاميذ الإلحاح في طلب الإجابة، وألقيت على الدبابتين نظرة من نافذة الفصل فوجدتهما تهرولان وفيهما المدافع والجنود؛ وقد رآهما الأطفال الذين كانوا يلعبون بجمع الحصى من الصحراء المشرفة عليها المدرسة فتسللوا إلى الحارات والبيوت هاربين؛ فحضرت في ذهني صورة الصيادين اللذين جمعا السمك في أسفاط عدة فلما رأيا تجار الرقيق تركا الصيد ووليا هاربين؛ فتبينت في ذلك شبها بين الاسترقاق والاستعمار، وعدت ببصري إلى الفصل فإذا هو يكاد يتميز من الغيظ، فقد كان من أبناء الإسماعيلية الذين ذاقوا ما ذاقوا، فقلت في هدوء ورزانة المدرس التي يصطنعها أحيانا : لعل الله يبعث في إنجلترا شابين آخرين ترتفع صيحتهما للقضاء على الاستعمار وخنق أنفاس الشعوب

ودق الجرس وانصرف التلاميذ وأنا أسأل نفسي عن هذه الضجة التي أثارها هذا الدرس وقد درسته في العام السابق فمر في هدوء وسلام ... ولقد تمنيت لو سمع العالم كله ذلك الدرس الصاخب فقد كان درسا حقا

محمد علي جمعة الشايب

(١) في غرب إفريقيا الوسطى

آراء جون ديوي في التربية

للأستاذ حسن محمد آدم

توفي أخيراً الفيلسوف الأمريكي جون ديوى John Dewey صاحب الآراء والنظريات المشهورة في التربية . ومن حق الرجل علينا — نحن المشتغلين بالتربية والتعليم — أن نكشف للناس عن بعض ما لهذا الفيلسوف من فضل على المناهج التربوية الحديثة في المدارس والمعاهد وبالتالي على الجيل الجديد الذي يتربى فيها في هذا القرن العشرين

يعتبر جون ديوى صاحب مدرسة وصاحب مذهب في التربية وله أتباع وأنصار عديدون وآراؤه الفلسفية في التربية تتميز بأنها عملية ترتبط بواقع الحياة وترى إلى نفع الإنسانية منفعة مباشرة ، ولهذا أطلق على مذهبه التربوى مذهب البراجماسية. وإذا نظرنا في هذه الآراء نجد أن ديوى يقرر أول ما يقرر أن « التربية يجب أن تهدف إلى تنظيم اشتراك الفرد في حياة المجتمع اشتراكا إيجابيا عن وعى وقصد ، كما يجب أن تهدف إلى الإصلاح الاجتماعى الذى لا يتحقق إلا إذا وجهنا نشاط الفرد وتفكيره نحو الاشتراك في المجتمع حتى يصبح فيه عضوا نافعا منتجا »

وكانت هذه المبادئ التى بدأ يقررها وينادى بها حدثا في حياة التعليم التي ألفها الناس وعكفوا عليها القرون الطوال . فإن السنة التى كان الناس يجرون عليها في تربية أبنائهم وتهذيبهم هى إرسالهم إلى المدارس بغية تلقى العلم واكتساب المعرفة عن طريق المربين الذين كانوا يتبعون طريقة واحدة هى طريقة إلقاء المعلومات وتلقينها للأطفال تلقينا نظريا حتى تمتلئ بها أذهانهم وكانت هذه هى الطريقة المثلى لازديادهم علما وخبرة ومعرفة بالحياة!

وهاجم ديوى هذه الطريقة التقليدية الجافة وبين ما فيها من عقم وأوضح أنها لا تفيد الصغير بخبرات جديدة تحقق الغرض من اكتسابه لها ، لأن موقفه السلبي الذى يتمثل في مجرد الإنصات والاستماع إلى خبرات الغير من شأنه أن يصرفه في غالب الأحيان عن الاستفادة ؛ ومن شأنه كذلك أن يكرهه في مادة الدرس بما تدخله في نفسه من السآمة والملل ؛ لأن الأشياء التى يكره على تقبلها لا تتعلق بذات نفسه لافتقادها عنصر التشويق وابعدها عن ما يوائم ميوله الفطرية ويجارى غرائزه الطبيعية في هذه السن المبكرة .

هذا فضلاً عن أن انتفاع الطفل بما يتلقاه في مدرسته في حياته المنزلية والاجتماعية يكاد يكون مستحيلا لأنه لا يجد ربطا بين حياته في المدرسة وحياته في المنزل أو في المجتمع ، وبذلك تكون التربية التى من هذا النوع عقيمة غير مجدية يصعب عليها أن تمد المجتمع بمواطن صالح واحد

لهذه الاعتبارات كلها رأى « ديوى » أن التربية السليمة هى التى تقوم على أساس من خلق حياة طبيعية للتلميذ في المدرسة ، مبنية على حاجاته وميوله ونشاطه الذاتى حتى يسعى بنفسه إلى اكتساب الخبرات التى تنمي مداركه وتغذى عقله .. وبذلك نقل التلميذ من ميدان السلبية والركود إلى ميدان الإيجابية والعمل والنشاط . وبعد أن كان أساس التثقيف في الميدان الأول التلقين النظرى الذى يأخذ فيه المدرس الجانب الأكبر من النشاط ولا يشاركه التلميذ فيه إلا بقدر ضئيل تافه ، أصبح أساسه في الميدان الثانى التوجيه العملى الذى يندفع فيه التلميذ من تلقاء نفسه بالتعلم ، باذلاً النشاط الأكبر تحت إشراف مدرسه الذى لا تتعدى مهمته أكثر من التوجيه والإرشاد إلى خير السبل لاكتساب المعرفة وتحصيل المعلومات

وخالف « ديوى » رجال التربية التقليدية في أن هناك أغراضاً ثابتة للتربية لا تتغير بتغير الأحوال والظروف . فكان يرى أن التربية الحقة هى عملية نمو « growth » مستمرة ومتغيرة دائما إلى ما هو أحسن بالنسبة لنوع المجتمع وظروفه ومثله العليا

ولقد فهم كثيرون فلسفة ديوى هذه فهما خاطئا . إذ توهموا أن معنى هذا هو التحلل من البرامج والمناهج التربوية . ولكن ديوى كان ينص دائما على أن عملية النمو التى يقصدها ليست نموا لا ضابط له . بل هى عملية نمو موجهة ومرغوب فيها desirable groth ومعنى هذا أنه لا ينكر المنهج . بل غاية ما يشترطه فيه هو أن يكون مرنا ملائما

المجتمع ، منتقلا لمختلف أوجه النشاط التى تمكن الصغار من اكتساب خبرات جديدة فى أطوار النمو المختلفة

ثم إنه على أساس هذه الفكرة التربوية أقام نهائيا فى مدارس الأحداث الأوربيــة عن طريقة التلقين القديمة ، ورسمت الطرق الحديثة فى التدريس كطريقة المشروع وطريقة المشاكل وغيرها . ويعتبر « وليم كلباتريك » و « جون ستيفنسون » اللذان يذكران إذا ذكرت هذه الطرق من تلاميذ ديوى الذين تلقوا عنه فى مدرسته أفكاره الرئيسية التى بنوا عليهــا فلسفاتهم فيما بعد

وكما كان لديوى أثره فى الغرب كان لهآثره أيضا فى الشرق وفى مصر خاصة . وقد بدأ المعنيون بشؤون التربية والتعليم يفتحون أذهانهم إلى هذه الفلسفة الجديدة واقتبسوا منها الشئ الكثير ، وتعتبر المدارس النموذجية إلى حد ما خير من أخذت بآراء ديوى . وهذا لا شك خطوة طيبة إلى الأمام . ونرجو أن يأتى قريبا هذا اليوم الذى تتحرر فيه المدارس المصرية من الطرق التقليدية الجافة فى التربية ، وتعمم فيما بينها منهج ديوى وغيره من رجال التربية الحدثين بقدر ما تسمح به ظروف بيئتنا حتى نتخلص بذلك من الجمود والنقص المعيب الموجود فى مناهجنا الحالية . وحتى يحين للتربيــة أن تثمر وتحقق المقصود منها

حسين محمد آدم

الولاة والعمال
في التاريخ الاسلامي

للأستاذ عواد مجيد الأعظمى

إن موضوع الولاة والعمال ، موضــوع فريد فى بابه ، يستوجب البحث والعناية ، لأهميته فى تبيان بعض الأسس المهمة فى النظم الإدارية عند الإســلام .. وقد لعب الولاة ، والعمال دورا فعالا فى إدارة الممتلكات الإســــلامية فى مختلف عصور التاريخ الإسلامى ، وحاولت جهدى بيان سياستهم تجاه الأمور المالية ، والسياسيــة ، والإدارية ، والعمرانيــة ، والثقافيــة ، والقضائيــة ، وسياستهم نحو الرعية … وقبل البحث فى سياسة الولاة من الناحية العملية ، والواقعية ، أرى لزاما توضيح معنى الولاية ، والإمارة ، وتطور مفهومها ، وملاحظة أسسها من الناحيتين النظرية والفقهية

معنى الولاية « الإمارة » وتطور مفهومها

ليست الإمارة أو الولاية إلا شكلا من أشكال الإدارة المحلية خاضعة بصورة مباشرة أو غير مباشرة للسلطة المركزية المتمثلة فى السلطان أو الملك أو الخليفة . . ومنشأها يرجع إلى حاجة الأمة فى إدارة البلدان التابعة لها؛ وبعبارة أخرى أن توسع الدولة وتعقد شؤونها المختلفة أدى إلى وجوب إنشاء الإمارة أو الولاية « ويراد بالولاية — الإمارة على البلاد ، فيولى السلطان ، أو الملك ، أو الخليفة من يقوم مقامه فى حكومة الولايات ، وهى الأعمال فى إصلاحهم .. وهذا النوع من الحكم قديم »(١) .. «وكان لكل إقليم حاكم أوعامل ، والغالب أن يكون بطريقا»(٢) « وكان أمراء الأقاليم يسمون « عمالا » ومعنى عامل يفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة — على أنه فيما بعد استعملت كلمة والى وهذا يشعر بالنفوذ والسلطان» (٣)

ويقول « متز » : « وبهذا الاسم كانــ يسمى — ولاة البلاد .. وكذلك أبناء بيت الخلافة »(٤) ومن كل هذا نرى ، أن جميع المؤرخين الحدثين ، يتفقون على مفهوم الولاية أوالإمارة فى أنها — نيابة — « وال » عن الخليفة ، أوالملك أوالسلطان فى إدارة شؤون الولايات التابعة له

وقد تطور مفهوم هــذه الكلمة — « فأطلقت كلمة « أمير » على يزيد بن عبد الملك كما أصبحت كلمة « عامل » فى عهــد بنى أمية تطلق على رئيس الناحية الإدارية كالمدير الآن(٥) .. » وقد امتنع كافور بمصر من التسمى « بالإمارة » ورأى أن يجرى على رسمه فى المخاطبة « بالأستاذية »(٦) … على

(١) جرجى زيدان — تأريخ التمدن الإسلامى — ج١ ص١٢٨
(٢) البطريق — غير البطريريك — فالأول لقب ذى منصب سياسى والآخر لقب ذى منصب دينى — كرد على الإدارة الإسلامية فى عز العرب — القاهرة ١٩٣٤ ص ١٠٢
(٣) — حسن إبراهيم — النظم الاسلامية مصر ١٩٣٩ ص١٩٧
(٤) متز — الحضارة الإســـلامية فى القرن الرابع الهجرى — القاهرة ١٩٤٠ ج ص ٢٧
(٥) حسن إبراهيم حسن — النظم الاسلامية — ص ١٩٧
(٦) متز — الحضارة الاسلامية — ج ١ ص ٢٧

أنه في العصور العباسية المتأخرة اتخذت الإمارة شكل أمير الأمراء : « فقد لقب ابن رائق « أمير الأمراء » وصار بيده رئاسة الجيش وامتدت سلطاته بصورة مباشرة على جباية الضرائب وعلى إدارة الحكومة المركزية ، وغدا اسمه يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة.»(٧) والواضح أن لقب «الأستاذية» و « أمير الأمراء » كان نتيجة لضعف مركز الخلافة العباسية وزيادة النفوذ الأجنبي وتوسع حركة انفصال الولايات عن جسم الدولة العباسية

الولاية فقهيا ونظريا

وقد صاغ الفقهاء نظرية الإمارة أو الولاية على النحو الآتي :(٨)

(١) إمارة عامة (٢) إمارة خاصة

والإمارة العامة على نوعين —

(١) إمارة استكفاء بعقد اختيار

(٢) إمارة استيلاء بعقد اضطرار

والإمارة عن اختيار تشمل سبعة أمور أوردها الماوردي وهي : —

(١) النظر في تدبير الجيوش . . وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم

(٢) — النظر في الأحكام — وتقليد القضاء والحكام

(٣) — جباية الخراج — وقبض الصدقات وتقليد العمال

(٤) — حماية الدين — والذب عن الحريم — ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل

(٥) — إقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين

(٦) — الإمامة في الجمع والجماعات — حتى يؤم بها أو يستخلف عنها

(٧)— تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه ومن غير أهله حتى يتوجهون معانين عليه(٩)

وأما الإمارة عن اضطرار فهي (١٠) التي يأخذها الوالي ويقرها الخليفة ، وفيها يكون الوالي مستبدا بالسياسة أو التدبير ، ولكن في المسائل المتعلقة بالدين تكون من اختصاص الخليفة فلا يمكن أن يغض النظر عن بدعة أو إهمال(١١) . . ومن ذلك يقول الماوردي : « وأما إمارة الاستيلاء التي تعقد عن اضطرار فهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها فيكون الأمير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير، والخليفة بإذنه منفذا لأحكام الدين، وهذا وإن خرج من عرف التقليد المطلق في شروطه وأحكامه ففيه من حفظ القوانين الشرعية وحراسة الأحكام الدينية ما لا يجوز أن يترك مختلا مدخولا ولا فاسدا معلولا ، فجاز فيه مع الاستيلاء والاضطرار ما امتنع في تقليد الاستكفاء والاختيار لوقوع الفرق بين شروط المكنة والعجز

وأما عن الإمارة الخاصة ... فيقول الماوردي « يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة ، وتشمل المجتمع وموضع السكان ومستقر الدعوة — والذب عن الحريم — وليس له أن يتعرض للقضاء ، والأحكام والجباية ، والخراج والصدقات »

ونختم قولنا عن وظيفة العامل كما جاء في كتاب قوانين الدواوين « أن العامل هو المتولي، ويلزمه عمل الحسابات ورفعها، والكتابة على ما رفعه من معاملته منها بالصحة والموافقة ، وكل من الناظر والمشارف ، إنما هو لضبطه ، والشد منه ، ويلزمه تحقيق الباقي إذا انصرف عن الخدمة » (١٢)

هذه هي صيغة الفقهية ... لشكل الولاية ، وأقسامها ووظيفة الوالي والعامل وسنبحث في الفصول الأخرى — الناحية العملية في سياسة الولاة والعمال في مختلف عصور التاريخ الإسلامي وعلى القارئ ملاحظة مدى المطابقة والمقارنة بين الناحيتين الفقهية العملية في سياسة الولاة والعمال في مختلف شؤون الحياة

بغداد — العراق فؤاد مجيد الأعظمي

(٧) الدكتور الدوري — دراسات في العصور العباسية المتأخرة بغداد ١٩٤٥ ص ٢٣٦

(٨) الماوردي — الأحكام السلطانية — ص ٢٤ — ٢٩ وكتاب القاضي : ابن الفراء الحنبلي : الأحكام السلطانية : ص ١٧ : ٢٢

(٩) الأحكام للماوردي « إلتزل بها آمن — وهو جهاد من يليه من الأعداء »

(١٠) ولسمى « إمارة الاستيلاء » — الحنبلي — الأحكام السلطانية ص ٢١

(١١) حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٢٠٢

(١٢) : أسعد بن مماتي — كتاب قوانين الدواوين — مصر ١٩٤٣ ص ٣٠٣

نظرات خاطفة

شاعر السودان *

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

تتمة ما نشر في العدد الماضي

إذن فشعر العباسي هو شعر الفخامة والجزالة والموسيقى العربية الأصيلة ذات الإيقاع الكلاسيكي والرنين البدوي المنيف الذي يعيد لنا تارة صوراً من شعراء بني العباس وأخرى من شعراء الأمويين الذين عاصروا الخلفاء الراشدين وعمروا حتى أوائل الدولة التي اتخذت دمشق عاصمة لها

على أنني وقد قرأت الديوان بإمعان رأيت ناحيتين مهمتين تطغى على شعره وهما :

١ — حبه لمصر:

عرفنا أن الشاعر جاء إلى مصر في مطلع حياته ودخل المدرسة الحربية في القاهرة ليعد نفسه حاميا لسياج الوطن، وعلمنا أيضا أنه مكث فيها مدة سنتين وكان آنذاك طري الإهاب ، ندي العود ، في فجر شبابه الريان ، فلذلك لم نعجب إذا ما ظل وفيا إلى الديار التي أبلى فيها بعض سني شبابه ، ولا نستغرب منه حنينه إلى معاهد شبيبته ورفاق صباه؛ خاصة بعد ما تركه فيها أستاذه الشيخ زناتي الذي كان له الفضل الأكبر في توجيهه وتثقيفه ، لذلك نسمعه يقول فيها :

مصر وما مصر سوى الشمس التي   بهرت بثاقب نورها كل الورى
ولقد سعيت لها فكنت كأنما   أسعى لطيبة أو إلى أم القرى(١١)
وبقيت مأخوذاً ، وقيد ناظري   هـــذا الجمال ، تلفتاً وتحيرا
ووقفت فيها يوم ذاك بمعهد   كم من يد عندي له لن تكفرا(١٢)
دار درجت على ثراهـا يافعاً   ولبثت من برد الشباب الأنضرا

(١١) طيبة هي المدينة المنورة وأم القرى مكة المكرمة

(١٢) يشير الشاعر إلى المدارس الحربية المصرية فلقد التحق بها سنة ١٨٩٩ وقدم استقالته منها بعد سنتين

ثم يسترسل في وصف ربى مصر ومغانيها ورياضها وطيب هوائها العليل :

فهنا يسكب الشاعر ألمه الذي يحس به منذ فارق مصر وفرحه بالعودة إلى البلد الذي أحبه وعقد عليه رجاءه ورجاء شعبه الكريم لذلك يهتف في مدح « ملك الوادي » من منبعه إلى مصبه

أقوى المالكين عزيمة   وأسدهم رأيا ، وأكرم عنصرا
فأقام من صرح العروبة ركنه   مذ قام فيها منذرا ومبشرا

ثم يقول

مولاي يا زين الملوك ومن غدت   مصر به زين العواصم والقرى
علت جاهلها وعلت فقيرها   وسقتهمو يمنى يديك الكوثرا
بوركت من ملك وبورك عهدك الميمون ما أبهى سناه وأبهرا
انظر إلى السودان نظرة مشفق   فلقد أمض زمانهم وتنكرا
وهمو بعرشك لائذون وما لهم   إلاك من بذر العسير ميسرا
فلذا تراهم كالعطاش تطلعوا   بالدو يرتقبون مزنا ممطرا(١٣)

ثم يصرخ صرخته الوجعة فيشرح لملك النيل حال شعبه وما فعل به المستعمر البغيض من تفرقة الصفوف وسجن الأحرار وخنق الحريات وكم الأفواه فيقول :

ضربوا بأقفاص الحديد عليهم   مثل الذي فعلوا بآساد الشرى
صبروا لعاصير الجبال رواسيا   وسروا وما ملوا امتطالية السرى(١٤)
وسهرت أحـدوهم بذكرك دائما
وحدى وأشدو بلبلا أو مزهرا (١٥)
حتى لصفت لكل أذن منهمو   قرطا وكنت فريده المتخيرا(١٦)

ونراه في قصيدة أخرى يتشوق فيها إلى عهد الشباب الذي قطعه في مصر وهو ناعم البال مستريح القلب فيقول :

هل إلى مصر رجعة وبنا شرخ   شباب غض وزهرة عمر
وليال قد أشرقت في رباها   كلها في الأقدار ليلات قدر

(١٣) الدو : الأرض الفازة التي لا ماء بها ولا شجر

(١٤) السرى : السير ليلا

(١٥) يستبان من هنا أن ثقافة الشاعر الدينية هي التي جعلته يورد في الشعر هذه اللفظة الفقهية وأعني بها (دائما)

(١٦) من قصيدته « آمال السودان في مليك الوادي » ص « ٢٢ » من الديوان

ومكان كأن كل نسيم ناشر فى أرجائه طيب نشر
يبهر العين منه مرأى أنيق من مروج قيد الأواضر خضر
وهناك النسيم يعبث بالما ء، ويزرى والورق الماء تذرى
وهناك البهى من كل زهر وهناك الشجى من كل طير
بقمة شاكات هوى كل نفس فصبا نحو حسنها كل فكر
رب هل تلك جنة الخلد أدخلنا إليها أم تلك جنة سحر
كنت فى ذلك الحمى ناعم البا ل خليا من كل قيد وأسر
فيك يا مصر لذتى وسرورى وسميرى وقت الشباب وذكرى

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن أكثر شعراء السودان لا يزالون متعلقين بمصر، يبنون عليها آمالهم وآمال شعبهم وبلادهم غير ملتفتين إلى صيحات دعاة التفرقة والاستعمار. هاتفين بالوحدة والتمسك بأهداف أمهم الحنون. وعلى رأس هذه الطبقة من الشباب المرحوم شاعر الإبداع التيجانى يوسف بشير. فهو يقول فى قصيدته «ثقافة مصر» (١٧)

مادنى اليوم من حديثك يا «مصر» رؤى وطوفت بى ذكرى(١٨)
وهفا باسمك الفؤاد ولجت بسمات على الخواطر سكرى
من أبى صخرة الوجود فقرا ها وأجرى منها الذى كان أجرى
سلسبيلا عذب المشارع ثرا وأ، ورياحم الأواذى غمرا(١٩)
كلا مصر السود منهـا زاد فى مجده جلالا وكبرا
كلا طوق «الكنانة» علما خولتها منه روافد تترى
هو من صافنا على حرم النيل وشطآنه دماء وشكرا
لجر النيل يوم نشر فى الأرض ضحاها وساغ للناس لجرا

قال:

كن فاستجاش يقذف دفا عا ويجرى على الشواطئ خرا

ويقول أيضاً فى قصيدته «رسل الشباب فى مصر»

وشباب من الكنانة حمس ينثرون الحماس صاحا بصاح
صرخوا بالعرين صرخة ذى مجد مذال وذى مقر مضاح
فى سبيل الجهاد من مصر بنوها بمنصل ورماح
وأرى مصر والشباب حليق مجد فرعون أو ضجيجى بقاع
مصر دين الشباب فى الحضر الرافه والبدو من قرى وبطاح
مصر أم الشعوب ماذا عراها واعترى الشرق من وجى وضياع
حبذا الموت فى سبيلك يا مصر الفتىء عن الحمى دفاع

• • •

قل لمصر وحيها فى شباب صيغ من جرأة ومن إزماع
شاد أركانها وشد ذراها وابتنى صرح مجدها المتداعى
فى جهاد من العقيدة صدق ونضال عن الحمى وقراع
مصر يامهبط الحضارة والنور ويامبعث الهدى كل ساع(٢٠)

وهكذا نجد أكثر أرباب الفن والقلم فى السودان لا ينكرون فضل مصر عليهم بل يتجهون دائما وأبداً صوب زعيمة النهضة وأم البلاد العربية متخذين منها قبلة يوجهون إليها صلاتهم وتسابيحهم وأناشيدهم لأنها الملجأ الوحيد والأمل الذى يخلصهم مما هم فيه، ولا غرو ففضل أعلام مصر وأدبائها وشعرائها يستوى فيه السودانى والسورى والعراقى واللبنانى وكافة العرب فى أقطارهم . .

والناحية الثانية الظاهرة فى شعر العباسى التى تظهر واضحة جلية فى شعره هى بكاؤه على شبابه الذاهب وتذكره أيامه السالفة

٢ — ذكرى الشباب:

تطالعنا لوعة تذكره لأيام صباه فى كل قصيدة من قصائده، فهو يبكى على ساعات لهوه وسنى مراحه وذكريات أفراحه، والناظر فى ديوانه يلمس هذه الظاهرة بوضوح تام فلنستمع إليه وهو يقول:

فارقتها والشعر فى لون الدجى
واليوم صدت به صباحا مسفرا (٢١)
«سبعون» قصرت الخطى فتركننى
أمشى الهوينا ظالعا متعثرا (٢٢)
من بعد أن كنت الذى يطأ الثرى
زهواً، ويستهوى الحسان تبخترا

(١٧) ديوان إشراقة ص٨٦
(١٨) رؤ : المنظر
(١٩) الأواذى جم آذى وهو الموج

(٢٠) ساع : ساعة
(٢١) فارقتها أى «مصر»
(٢٢) ظالع : معوج

يامن وجدت بحبهم ما أشتهي ... هل من شباب لي يباع ويشترى
ولو انهم ملكوا لما بخلوا به ... ولأرجعوني والزمان القهقرى
لأظل أرفل في شباب فاتني ... زمن الشباب، وفته متحسرا

أو يقول: —

ولله قلب قد سلا نشوة الصبا ... وقد كان في ريعانه جد جاهد
وهل أبقت الأيام شيئا ألذه ... وقد أسلمتني للردى والشدائد
لذا بعت لذات الصبا غير نادم ... وعدت لشيب لم يكن خير وافد

أو يقول:

ليت الشباب عاد لي ... بعد المشيب والكبر
حتى أرى أين حط ... الرجل من كف القدر

أو قوله:

واليوم قصر بي عما أحاوله ... وعاقني عن لحاق الركب ما عاقا
وأنكر القلب لذات الصبا وسلا ... حتى النديمين: أقداحا وأحداقا
أحبو إلى الخمس والستين من عمري ... حبوا وأحمل أقلاما وأوراقا

أو قوله:

ما أنس لا أنس إذ جاءت تعاتبني ... فتانة اللحظ ذات الحاجب النونى
يا بنت عشرين والأيام مقبلة ... ماذا تريدين من موءود خمسين؟

أو قوله:

ولى شبابي وانطوت ... أيام غصني الندى
جادك ثجاج الحيا ... من مبرق ومرعد
لأنت ريحان القلو ... ب عدت أو لم تعد

وهكذا فنحن كلما قلبنا صفحات الديوان لا تقع أعيننا إلا على ذكرى مؤلمة لشباب مضى .. فهو كلما مرت به عجلة الحياة سجل أعوامها في شعره وهذا يرجع سببه كما يقول « علماء النفس » إلى كبت عواطفه وعدم الانسياق في طرق اللهو التي يزينها الشباب وعدم إطاعة نوازع الجسد في دور الصبا؛ وذلك لوجوده في بيئة جامدة محافظة ووجوده بين أحضان عائلة دينية متمسكة بتقاليدها، لذلك نجد طابع الألم مرتسما على كل بيت يذكر فيه شبابه كما يفعل اليوم أكثر الرجال الذين يحرمون في شبابهم من متع الحياة لفقرهم أو لانصرافهم إلى العلم ولكنهم عندما تتاح لهم الفرصة ولو في كهولتهم تراهم يركضون وراء اللذات كأنهم منطلقون من السجون، كما حدث للشاعر الرصافي فإنه بعد أن قضى شبابه وهو منطو على نفسه رأيناه في صدر رجولته يعب من كؤوس اللذة عبا، دون ما وازع أو رادع

ولذلك فإن العباسي محق ببكائه على أيام شبابه لأنه حرم من لذته وهو في كل ما قاله صادق العاطفة يحس فيه قارئه حرارة اللوعة وصدق الإيمان

إلى هنا نمسك عن الحديث لنترك المجال إلى غيرنا للكتابة عن هذا الشاعر لنعود مرة أخرى إلى تقديم نماذج جديدة من شعراء السودان الشباب في أعداد قادمة إن شاء الله

بغداد — عبد القادر رشيد الناصري

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى
للرحلات الثانية من كتاب
رحلات
لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك
سفير مصر في الباكستان
ثمن الأول ثلاثون قرشا والثاني أربعون قرشا عدا أجرة البريد
والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة

ديوان مجد الاسلام

للمرحوم الشاعر أحمد محرم

يقدمه الأستاذ ابراهيم عبد اللطيف نعيم

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار (١)

هي الأواصر أدناها الدم الجاري   فلا عالة من حب وإيثار
الأسرة اجتمعت في الدار واحدة   حييت من أسرة بوركت من دار
مشى بها من (رسول الله) خير أب   يدعو البنين، فلبوا غير أغمار
تأكد العهد عما ضم ألفتهم   واستحصد الحبل من شد وإمرار
كل له من سراة المسلمين أخ   يحمي الذمار ويرعى حرمة الجار
يطوف منه بحق ليس يمنعه   وليس يعطيه إن أعطى بمقدار
يجود بالدم، والآجال ذاهلة   ويبذل المال في يسر وإعسار
هم الجماعة، إلا أنهم برزوا   في صورة الفرد فانظر قدرة الباري

(١) كانت المؤاخاة بعد بناء مسجد المدينة — وقيل وهو يبنى — وكان المراد فيها إزالة الوحشة، وشد الأزر في سبيل الدعوة الإسلامية، وكانت توجب أن يرث كل أخ أخاه دون ذوي الأرحام، فلما عز الاسلام وقويت شوكته أبطل هذا الحكم بقوله تعالى «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» وكان نزول هذه الآية الشريفة في وقعة بدر، ولم يكن قد عمل بهذا الحكم من قبل»

وكانت المؤاخاة بعد الهجرة بخمسة أشهر، وقيل غير هذا

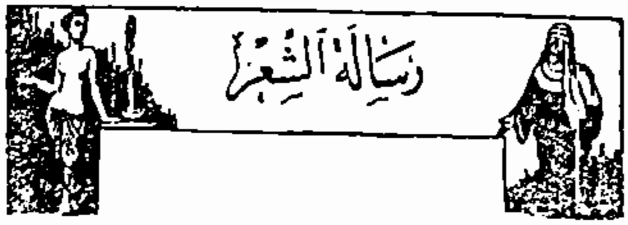
عن زيد بن أبي اوفى قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد المدينة فجعل يقول: أين فلان؟ أين فلان؟ فلم يزل يتفقدهم ويبعث اليهم حتى اجتمعوا عنده فقال: إني محدثكم بحديث فاحفظوه وعوه، وحدثوا به من بعدكم، إن الله تعالى اصطفى من خلقه خلقا، ثم قرأ (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) قال: وإني أصطفي منكم من أحب أن أصطفيه وأواخي بينكم كما آخى الله تعالى بين ملائكته، قم يا أبا بكر، فجثا بين يديه الصريفتين فقال: إن لك عندي يدا الله يجزيك بها، ولو كنت متخذا خليلا لا تخذتك، فأنت عندي بمنزلة قميصي من جسدي، وحرك قميصه بيده. ثم قال: ادن يا عمر، فدنا فقال: قد كنت شديد البأس علينا يا أبا حفص، فدعوت الله أن يعز بك الدين، أو بأبي جهل، ففعل الله ذلك بك، وكنت أحبهما إلى الله، فأنت معي في الجنة ثالث ثلاثة من هذه الأمة

وآخى بين المهاجرين والأنصار، فجعلهم أخوين أخوين وكانوا خمسين من هؤلاء ومثلهم من هؤلاء، وقيل كانوا تسعين، وكانت المؤاخاة في دار أنس بن مالك، وهي دار أبي طلحة زوج أم أنس، واسمه زيد بن سهل

صاح النبي بهم كونوا سواسية (٢)   يا عصبة الله من صحب وأنصار
هذا هو الدين لا ما هاج من فتن   بين القبائل دين الجهل والعار
ردوا الحياة، فما أشهى مواردها   دنيا صفت بعد أقذاء وأكدار
الجاهلية سم ناقع وأذى   تشقى النفوس بداء منه ضرار
تأهبوا، إن دينا قام قائمه   يومي إليكم بآمال وأوطار
أما ترون رياح الشرك عاصفة   تطغى على أمم شتى وأقطار؟
إن أترك الناس فوضى في عقائدهم   ولن أسالم منهم كل جبار
أكلما ملك الأقوام مالكهم   رمى الضعاف بأنياب وأظفار؟
الشر غطى أديم الأرض، فارتكست (٣)   أقطارهم بين آثام وأوزار
أخفى عاصمها الكبرى فكيف بكم   إذا تكشف عن وجه لها عار؟
لأنزلن ذوي الطغيان منزلة   تستفرغ الكبر من هام وأبصار
ظنوا الضعاف عبيدا يمتهنون زعموا   هل يخلق الله قوما غير أحرار؟
ما عزهم إذ أطاعوا أمر جاهلهم   بواحد غالب السلطان قهار؟
يرمي العروش إذا استعصت ويتركها   مبثوثة في جناحي عاصف ذار
بعثت بالحق، يهدي الجامحين كما   يهدي الحيارى شعاع الكوكب الساري
أدعو إلى الله بالآيات واضحة   تهدي الغوي، وتنهى كل كفار
فمن أبى، فدعاني كل ذي شطب (٤)   ماضي الرسالة في الهامات بتار
الله أكبر هل في الحق منقبة   لمستخف بعهد الله غدار؟
ألم يكن أخذ الميثاق من قدم   فما المقام على كفر وإنكار؟
إن الأولى اتخذوا الأصنام آلهة   على شفا جرف من أمرهم هار
يستكبرون على من لا شريك له   ويسجدون على هون لأحجار
راحوا يجلونها من سوء ما اعتقدوا   والله أولى بإجلال وإكبار
لكل قوم إله يؤمنون به   ما يبتغي الله من إيمان فجار؟
النار أعظم سلطانا ومقدرة   في رأي عبادها، أم خالق النار؟
سبحانه من إله شأنه جلل   يهدي النفوس بآيات وآثار

(٢) سواء   (٣) ارتكس الرجل والشيء انتكس

(٤) الطرائق في السيف



١ – إلى مجلس الدولة

للأستاذ محمد يوسف المحجوب

يامعقلا أنصف الأحزاب كلهم   ولم يجد منصفا منهم إذا حكموا
الحق رائده ... والعدل ديدنه   سيان مضطهد يشكو ومنتقم
ليت الأولى هتفوا لما نصرتهم   تذكروا صنعهم بالأمس أو ندموا
بل ليتهم فكروا فى يومهم لغد   لكنها شهوات النفس تضطرم
خلف السياسة والأحزاب أفسدنا   حتى القضاء.. له كادوا وما رحموا
لكنك الطود : لم تهتز إذا عصفت   بك الرياح ..ولازالت بك القدم

° ° °

يامعقل الدولة اضرب للحمى مثلا   عليا ربمصر بنى قوى فقد وهموا
كم حاولوا أن ينالوا منك وا أسفا   ماذا سيبق إذا ما حصننا هدموا !
امل فيا راوه عبرة لهم   لو انصفوا قبلوا الجدران واستلموا
علمتنا أن روح العدل باقية   وأن صرح الهدى هيهات ينهدم
وأن فيك قضاة كلما جلسوا   للحكم عفوا فما جاروا ولا ظلموا
لوجه مصر وللتاريخ ما كتبوا   وللعدالة والإصلاح مارسموا
حصن البلاد : تحياتى وتهنئتى   وما أهنئ أقواما لك احتكموا
لكن أهنئ فيك العدل مؤتلقا   فالعدل أعظم ماتحيا به الأمم

لأكشفن عن الأبصار إذ عميت   ما أسبل الجهل من حجب وأستار
ما للسراجين(٥) بد من مصارعها
إذا انقضت سطوات الضيغم الضارى
ضموا القوى إنها دنيا الجهاد بدت   أشراطها وترا آى زندها الوارى
لابد من غارة للحق باسلة   وجحفل من جنود الله جرار
خير الذخائر أبقاها وإن تجدوا   كالعهد يرعاه أخيار لأخيار
لا تنقضوا العهد إن الله منزله   على لسان رسول منه مختار
قالوا : عليك صلاة الله ، إن بنا   ما يعلم الله من عزم وإصرار
آخيت بين رجال يصدقون إذا   زات قوى كل خداع وختار
جنود ربك ، إن قلت اعصفوا عصفوا
يرمون فى الحرب إعصارا بإعصار
من كل منغمس فى النقع مرتجس(٦)
وكل منبجس(٧) باليأس فوار

يتبع   إبراهيم عبد اللطيف نعيم

(٥) السراحين الذئاب
(٦) ارتجست السماء رعدت ، والسحاب صوت
(٧) انبجس الماء ونحوه تفجر

٢ – حتى النساء..

حتى النساء وما قربن   من النيابة – بعد – قربا
أو ذقن طعما لانتخا   اب بات يشغفهن حبا
دب الخلاف بجوهن   وقام معركة وحربا
أنظار لجمعياتهن   وما حوت : طعنا وسبا
أوماترى « الحزب النسائى »   قد غدا عشرين حزبا ؟
فصلت رئيستهن عضوات   به إربا فإربا
وفصلن منه رئيسة   فاضحك معى عجبا وعجبا
البعض يأكل بعضه   قد صار جد الأمر لعبا..
يابرلمان : متى أراك   بجوهن ملئت صخبا ؟
وأرى معاركهن فيك   تطورت : لطما وندبا ؟
يا أطول النواب زندا   من بنى جنسى وأربى
وأشدهم لسنا وأجرأهم   – لدى الميدان – قلبا
يا صاحبى : قل لى إذا   زاحمنكم جنبا لجنبا
وغدا التنافس بينهن   وبينكم دفعا وجذبا
كيف المصير متى دخلن   البرلمان ؟ وقيت ضربا
وحماك ربى يا زميل   ولا أراك الدهر قلبا
من « شبشب » يتهال إن   عارضت ثائرة وغضبى
ومن المخالب إذ ترى   أظفورها بقفاك « طبا »
ومن الدموع الزائفا   ت إذا انهزمن تفيض سكبا
ومن القرار بفصلكم   تمضيه « زنوبه » « وبنبا »

محمد يوسف المحجوب

الكتب

وحدى مع الأيام

للشاعرة الآنسة فدوى طوقان

للأستاذ كامل السوافيرى

أعتقد أنى لست بحاجة إلى أن أقدم للقراء الشاعرة الآنسة فدوى طوقان صاحبة ديوان «وحدى مع الأيام» الذى أصدرته لجنة النشر للجامعيين ، وهى الكوكب اللامع فى سماء الشعر ، والنجم الساطع فى أفق الأدب، والبلبل الصداح فى دوح العروبة الذى غنى فأشجى القلوب ، وهز النفوس

عرفت فدوى منذ فترة تزيد على عشرة أعوام بما قرأته لها من قصائد ومقطعات على صفحات الرسالة الغراء، والأديب الزاهرة، وقد اختصتهما بطائفة كبيرة من إنتاجها الشعرى ، فهزنى شعرها ، وأطربنى غناؤها ، لا لأنه شعر نسائى ظهر فى فترة أقفر فيها الشعر الحديث منه . ولا لأن صاحبته آنسة تستحق المجاملة والتشجيع، ولكن لأنه صادر عن شعور صادق، وموهبة فطرية. وكنت أتيقن أن يوما قريبا آت تتبوأ فيه الشاعرة الناشئة مكانتها فى موكب الشعر . وقد حققت الأيام ذلك وأصبحت فدوى طوقان شاعرة لا لفلسطين وحدها ؛ بل لدنيا العرب والعروبة

وليس ديوان الشاعرة إلا مجموعة من القصائد المتناثرة هنا وهناك تخيرتها الشاعرة مما نظمت وضمتها إلى بعضها ، لوجود وحدة نفسية بينها، فهناك شعر كثير لم يتضمنه الديوان ولعلها تنشره فى ديوان آخر

وأستميح صديق الكاتب المعروف، والناقد اللامع الأستاذ أنور المعداوى العذر إذ أنوه بإشرافه الفنى على إخراج الديوان . وأنا أعلم أنه لن يرضيه هذا التنويه . ولكنه يرضى الفن والأدب، وإلى المشرف يرجع الفضل فى الحلة الأنيقة التى ظهر بها الديوان

أهدت الشاعرة الفاضلة ديوانها إلى روح شقيقها الشاعر المرحوم إبراهيم طوقان الذى قصفت يد المنون غصنه الرطيب وهو ريان الصبا ، ريق الشباب، وكان للشاعرة الأخ والوالد والأستاذ، فأحدث موته فى قلبها فاجعة لم تستطع الأيام أن تسدل عليها ستار النسيان ، وشق فى فؤادها جراحا لم تندمل، وفجر فيها ينابيع الحزن والأسى، فصاغت من دموع العين ، ودماء القلب ، المراثى تزخر باللوعة ، وتفيض بالألم ، وهى فى حزنها عليه ورثائها له تلتقى بالشاعرة المخضرمة الخنساء فى بكائها على أخيها صخر ، ورثائها له ، ويبدو أن فجيعة فدوى بإبراهيم كانت فوق ما يحتمله قلبها ، فأحالت حياتها الهانئة الوادعة إلى مأتم دائم ، ودموع لا تجف وزفرات لا تنقطع، وطبعت شعرها بطابع الأسى والحزن، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائدها من الحزن الدفين ، والحرقة اللاذعة

استمع إليها فى قصيدتها «حياة» ص ٣٩ من الديوان التى مطلعها

حياتى دموع
وقلب ولوع
وشوق ، وديوان شعر ، وعود

إذ تبكى أحباءها الراحلين إلى عالم الخلود ، وتصور اللوعة على فقدهم ، فتناجى روح المرحوم والدها ، ثم تتجه إلى شقيقها إبراهيم الذى كان لها نبع حياة وحب ، وضياء العين والقلب ، وإذا رياح الموت العاتية تطفئ شعلته وتصبح الشاعرة وحيدة فى ظلام الوجود ، حائرة فى قفار اليأس ، لا نور يهديها ولا أمل يناغيها

وفى ليل سهدى
يحرك وجدى
أخ كان نبع حياة وحب
وكان الضياء لعينى وقلبى
وهبت رياح الردى العاتيه
وأطفأت الشعلة الغاليه

واصبحت وحدى
ولا نور يهدى
ألجاج حيرى بهذا الوجود

ومن قصيدة « على القبر » ص ١١٥ تناجى قبره فتحس أن للقبر إشعاعا من النور ، وأنه أجل القبور لأن دنياها فيه ، وفى قلبها مأتم دائم

آه يا قبر.. له إشـعاع نور
لا أرى أجمل منه فى القبور
فيك دنياى وفى قلبى الكسير
مأتم ما انفك مذبات لديك
قائمـا يأخذ منه بالوتين

وهنا أقف لحظة لأسجل أن فدوى قد بلغت القمة فى هذا الفن ؛ أقصد فن الرثاء من ناحية الصدق الشعورى ؛ والصدق الفنى وأقصـد به الصياغة اللفظية التى تتجلى واضحة فى شـعر الشاعرة . ممـا يدل على تمكن من لغة عدنان ، وإحاطة بأسرار بيانها ، واستعمال مفرداتها . وللشاعرة فى رثاء أخيها شعر كثير لم يتضمنه الديوان

ونترك فدوى التى هدها الحزن. وأضناها الأسى على إبراهيم.. إلى فدوى الشاعرة الوطنية التى ترى بلادها المقدسة تخر صريعة أمام العدوان الاستعمارى الظالم — ولا أقول الاستعمار الصهيونى فنحن نعلم من يقف وراء الصهيونية — وتشاهد الكارثة المريعة تدمر بناء أمتها وتدك مجدها فتثور عاطفتها الوطنية ، وترسل صيحتها الشعرية تستصرخ أبطال العروبة وتستنهض همم العرب ليدفعوا عن فلسطين العدوان ويدرأوا عنها العدو؛ فتقول من قصيدة « بعد الكارثة » ص ١٢٧

يا وطنى مالك يحنى على روحك معنى الموت معنى العدم
أمضـك الجرح الذى خانه أساته فى المأزق المحتدم
لا روح تستنهض من عزمهم لا نخوة تحفزهم ، لا هِمم

ولا يلبث الأمل أن يداعب قلب الشاعرة فتحس أن الغمرة ستنجلى ، وأن هذا الليل المظلم سيعقبه فجر مشرق ، وأن السـحاب المركوم سيتبدد عن صفحة الجو ، فلا يزال فى الأمة العربية شباب أحرار من الذين يأبون الضيم ، ويحاربون الهون لن يقعدوا عن ثأرهم

سـتنجلى الغمرة يا موطنى ويمسح الفجر غواشى الظلم
هو الشباب الحر ذخر الحمى اليقظ المسـتوفز المنتقم
لن يقعد الأحرار عن ثأرهم وفى دم الأحرار تغلى النقم

ولقد عاصرت فدوى مراحل جهاد العرب فى فلسطين ضد الاستعمار البريطانى والصهيونية الآثمة. وشهدت قوافل أبطال الحرية المتتابعة ، الذين قدموا أرواحهم رخيصة للدفاع عن أوطانهم منذ البطل المجـاهد المرحوم عز الدين القسام . إلى الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ . وشهدت جبلى جرزيم وعيبال يموجان بالمجاهدين من أبطال جبل النار ، فكان كل ذلك من أكبر العوامل التى جعلت من فدوى شاعرة وطنية تؤجج فى النفوس عاطفة الدفاع عن الوطن. وتضرم فيها النخوة والحمية ، وتذكر المجاهدين العرب بصفحات البطولة اللامعة التى سطرها التاريخ لأجدادهم الثائرين

وتقع الكارثة عام ١٩٤٨ وتهوى البلاد إلى حضيض الاستعباد وتهيم جيوش اللاجئين من أبناء فلسطين على وجوههم ، يبحثون عن المأوى فلا يجدون إلا المغاور والكهوف والأودية والشعاب والخيام المهلهلة التى لا ترد الحر والقر فيتخطفهم الموت زمرا لا فرادى . ويوحى هذا المنظر المريع الشعر فى قلب فدوى فتنشد من قصيدة « مع لاجئة فى العيد » ص ١٢٩

أختاه هـــذا العيد رف سناه فى روح الوجود
وأشاع فى قلب الحياة بشاشـــة الفجر السعيد
وأراك مابين الخيام قبعت تمثالا شـــقيا
متهـالكا يطوى وراء همود ألمـا عتيـــا
يرنو إلى اللاشئ ... منسرحا مع الأفق البعيد

وأترك هذين الفنين الشعريين من الفنون التى حلقت فيهما الشاعرة إلى الحديث عن فدوى الإنسانة التى لا تقف برسالتها الفنية عند تصوير عواطفها ، وبث آلامها وأحزانها . شأن الشعراء الذين يتحدثون من ذواتهم ولا يحسون بإحساس أممهم ومشاكل مجتمعهم ، لأقرر أن فدوى فنانة وإنسانة تشاطر البائسين آلامهم ، وتدعو البشرية لتجفيف دموعهم . وتنادى بالعدالة الاجتماعية حتى لا يكون فى الناس جائع ولا محروم

تقول من قصيدة « مع سنابل القمح » ص ٢٦

كم بائس ، كم جائع كم فقير   يــكدح لا يجنى سوى بؤسه
ومترف يلهو بدنيا الفجور   قد حصر الحيــاة فى كأسه

* * *

لم تحبس السماء رزق الفقير   لــكنه فى الأرض ظلم البشر

بقى أن أقول بعد ذلك أن هناك ظاهرة واضحة تطالع النقاد فى شعر فدوى : وليست تلك الظاهرة ســوى فراغ الحياة . أوسمها إن شئت الحرمان . الحرمان من العطف والحنان. الحرمان القاتل الذى جعل الحزن يرين على نفسها ، ويستحوذ على قلبها فيشعرها بأنها تحيا غريبة فى دنيا الناس . ولعل اسم ديوانها أكبر دليل على ذلك حيث أضنتها الحيرة ، واستبد بها القلق ، فرغبت عن الحياة وتمنت أن تنطلق روحها من الأرض إلى السماء .

تقول فى قصيدة « أشواق حائرة » ص ٣٢

وهناك تومئ لى السماء وبى   شوق إليهــا لاهف عارم
فأود لو أفنى وأدمج فى   عمق السماء ونورها الباسم

وقد كررت الشاعرة هــــذا المعنى فى قصائد متعددة من الديوان وقد أوحى إليها هذا القلق بالتساؤل عن حقيقة الموت والبعث والخلود

تقول من قصيدة « خريف ومساء » ص ١٢

عجبا ما قصة البعث   وما لغز الخـــلود ؟
هل تعود الروح للجسم   الملقى فى اللحــود ؟

وأنتقل إلى شعر الطبيعة فى ديوان فدوى لأقرر أن الشاعرة قد تغنت بجمال الطبيعة فى البيئة المحيطة بها ، والشاعرة عاشت فى مدينة عريقة فى مدينة نابلس فى فلسطين حيث يحتضن جبلا جرزيم وعيبال المدينة ، وعلى سفح الجبلين تــكثر الروج التى أوحت للشاعرة بقصيدة «مع المروج» ص ٩

هذى فتاتك يامروج   فهل عرفت صدى خطاها
عادت إليك مع الربيع الحلو   يامثـــوى صباها
درجت على السفح الخضير   على المنابع والظلال
روحا تفتح للطبيعـــــة   للطـــلاقة والجمـــال

وقد حلقت الشاعرة فى أجواء بعيدة ، وتناولت فنون الشعر المختلفة ، وبرهنت على أن طاقتها الشعرية متعددة النافذ تغذيها ثقافة واسعة ، واطلاع دائم

ولها فى الديوان قصائد من تجارب شعورية اجتازتهــا الشــاعرة فكانت تعبيراً صادقا عما يختلج فى شعاب القلب ومسارب النفس ، وتبدو هذه التجارب فى القصائد الآتية من الأعماق ، غب النوى ، إلى صورة

ولا ينحدر مستوى الشاعرة فى هذه التجارب عنه فى الرثاء والوطنيات . والتأملات والنزعات الفلسفية

وبعد فأظننى قد قدمت للقراء صورة عن ديوان الشاعرة الملهمة التى قرأوها . والتى قدمها شعرها إلى القراء خير تقديم

كامل السوافيرى

رفائيل

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

إحدى روائع القصص العالمى الواقعى
لشاعر فرنسا الخالد
* لامرتين *

ثمنها ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد



رسالة فى أدب البشرى

تلقيت عن طريق صحيفة « المصرى » الغراء كتابا من الأستاذ جمال الدين الرمادى يقول فيه إنه يعد رسالة جامعية عن المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى للحصول على إجازة «الماجستير» ويستفسرنى عما نشرته قبل سنوات فى « الرسالة» عن شعر الشيخ البشرى الذى كان ينشره فى صحيفة (الظاهر) التى كان يصدرها المرحوم محمد أبو شادى بك

وكنت أريد أن أجيب الكاتب الفاضل برسالة خاصة لولا أنى افتقدت كتابه خلال إقامتى فى المصيف برمل الإسكندرية ، ومن ثم انبهم على عنوانه الذى طلب إلى أن أكتب إليه بوساطته

والذى سمعته من شيخنا البشرى عام ١٩٣٤ أنه كان يقول الشعر وينشره فى بعض الصحف ومنها جريدة الظاهر ، على أن ما نشره فى تلك الصحيفة لم يكن يعدو — فيما يظهر — هجاء الشيخ على يوسف صاحب المؤيد — رحمه الله — أيام قضية الزوجية المشهورة عام ١٩٠٤ ولو رجع الكاتب الفاضل إلى مجموعة الظاهر فى تلك السنة لوجد عندها الخبر اليقين . فإذا عم عليه الأمر فإنى أنصحه بالرجوع إلى الكاتب اللغوى الأستاذ محمد شوقى أمين المحرر فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية فهو حجة فى أدب البشرى إذ كان يملى عليه مقالاته فى أخريات أيامه

والذى أعرفه من طبيعة الشيخ البشرى أنه لم يكن يعنى بجمع ما ينشره فى الصحف الدائرة ، ولقد عهد — رحمه الله — إلى كاتب هذه السطور وبعض إخوانه فى جمع المقالات التى احتواها فيما بعد كتابه « المختار »

وبعد ، فأحب أن أشكر للأستاذ جمال الدين الرمادى حسن ظنه بصاحب هذا القلم الضعيف ، وأرجو أن يوفقه الله لنشر أدب البشرى قبل أن يعفى عليه الزمان

منصور جاب الله

تحية طيبة

قرأت بالعدد ٩٩٣ من الرسالة الغراء بحثا موضوعه « جحا القاضى » للأستاذ عطا الله ترزى باشى جاء فيه ما يأتى : —

« ولئن كان جحا ضحكة بين الناس فإنه لم يكن صاغرا أو مهانا راضيا بالذل والضيم » وجاء الشرح بالحاشية لكلمة « ضحكة » هكذا : —

« هو من يضحك على الناس ويضحك الناس عليه » ونحن نتساءل أيريد الأستاذ الكاتب كلمة ضحكة (بفتح الحاء المهملة أم بسكونها ؟) إن كان يريد الأولى فالشرح الذى أورده على هذا فى الحاشيه خاطئ لا يستقيم وكذلك الأمر إن أراد الثانية

تقول العرب ضحكة بضم ففتح لمن يضحك على الناس . وتقول ضحكة بضم فسكون لمن يضحك عليه الناس . ويكون الأستاذ على هذا قد أتى بشرح لا يخضع تحته أحد اللفظين

قال ابن السكيت فى الإصلاح والتبريزى فى تهذيبه « إعلم أن ما جاء على فعلة بضم الفاء وفتح العين من النعوت فهو على تأويل فاعل وما جاء منه على فعلة ساكن العين فهو فى معنى المفعول » وجاء بالمقامة الثالثة والعشرين «الشعرية» للحريرى :

وإنى لأكره أن تشيع فعلته بمدينة السلام . فأفتضح بين الأنام . وتحبط مكانتى عند الإمام . وأصير ضحكة بين الخاص والعام ...) أى يضحك على

خميس محمد ابراهيم

على هامش الحياة — رسالة

« وبعد » فقد حدثتنى نفسى أن أخط إليك هذه الرسالة ، وقطعت بين الإحجام والإقدام شوطا بعيداً ، وكاد يقعد بى عنها أنى كتبت إليك مثلها يوما ، فاحتقت غرضها ولا أصبت هدفا ، وواجهتنى حين التقينا بالصمت ، فلم أدر عجبوه سرك ، ولم أتكشف وقعها على نفسك ، وظللت على خطتك فى الحياة ، لا تبالى نصيحة ، ولا تحفل بتسديد ، وكاد يقعد بى عنها ثانيا أن موضوع الحديث شائك ، وقد أكون فيه متهما ، وربما وصمتنى فيه بالحيف أو التحيز ، أو ما يحلو لك أن تسميه ، ويشهد الله أن باعثه هو الشعور الأخوى الذى يوحد بينى وبينك ، فرد هذه

الرسالة إلى وإن توجهت إليك . وما إخال واحداً منا يرضى أن يحايد أخاه ، أو يقنع منه بالإقاء والافتراق ، والتبسط في الحديث ، والجهد في الابتسام ، وستر الخواطر ، ولست أملك نفسي إن سلط عليك لسان أجنبي ، أو نال منك نائل حقد ممن انقطعوا دون غايتك ، وانبهروا عن اللحوق بك ، لست أملك نفسي أن أثور لك ، فأفقد أصدقائي ، وأستهدف لملام الناس وتقريعهم ، وخير لي ولك وللناس جميعا ، أن تلق إلى سمعك ، وتبذل من وقتك بمقدار ما تنظر في هذه الرسالة ، فلعله أن تلتقط من بينها ما يضيء لك السبيل ، فتمضي حيث يمضي الناس ، لا تخلد إلى الأرض ، أو تحيا في السماء ، وإنه ليعانى على شعور بأنك ربما أزريت بي وبقلمي وبسائر منهجي ، فقد جلست مني يوما مجلسا فيه طائفة من الاتهام ، وكثير من الحيف ، وخشيت على نفسي أن أكون كما جردتني من كل محمدة ، وألصقت بي كل مذمة ، وقت خزيان من ترادنك واطرادك ، ولا أرى نفسي من المساقط والمزالق ؛ فما في الحياة من برئ من الذنب ، وخلص من العيب ، ولا حملت لك في نفسي غيظا ، أو ما يشبه الغيظ ، لأنك أخي ، وما يمكن أن يريد أخي إلى إحراجي ، أو إغاظتي أو النيل مني ، أو الزراية بي ، وأنت تفهم هي هذه الحقائق سافرة واضحة ، وربما كان هذا هو الذي دعاك إلى الثورة على بالأمس ، كما أثور أنا عليك اليوم ، ولا أحب أن أتميز عليك في خليقة ، أو أفضلك في مكرمة .. هي مسائل من هامش الحياة ، ولكنها ترمى إلى الصميم ، وقد تعدها أنت تافهة ، ولكنها في اعتباري جسيمة ، وهي لا تخصني أنا ، فمن خلق التسامح والعفو والإغضاء ، ولكنها تمس أشخاصا يعتون إلى بسبب ، وهم يدققون في مسائل الحياة ، بما لا يستوجب العتاب ، لأن ذلك منهج البشر ، وما بد من الخضوع لهذا القانون ، وقد تجنيت عليهم ، وتخدعك نفسك أن رائدك الحق ، وما سواه الباطل ، وأنا وهم وسائر الناس لا نراه إلا تعنتا وشططا ، مبعثه الخيال ، ومرده إلى الجور والتحيف .. إنها مسائل مما أراه يدنو من فهمك ، ولا تقصر عنه يدك ، ولا يعوزك أن تفهم أن سوء الظن في أقوال الناس وأفعالهم يكاد يغلق عليهم أسماعهم وأبصارهم ، ويأخذ عليهم مسالك التعقل ، فلا يدع للهدوء إلى أنفسهم طريقا ، فإن رأيت ألا تضع نفسك مواضع التهمة ، وأن تعلم أن هذا المجتمع البشري ، يقتضيك أن تفهمه ، وتمقل مواجهه ، ولا تشذ عنه برأي ، أو تنعزل بفكرة ، في غير ما استهانة بكرامتك ، أو امتهان لشخصيتك ، كنت قد حققت أملي فيك ، ورأيت أنني رميت إلى غاية ، وأصبت في مرماي ، وإن تركت الثغرة تفصل بينك وبين الناس ، ورغبت عن حديثي إليك ، ورمت بدعوتي إياك أن تجانس الناس في اتجاهاتهم ، وتتلاقى وإياهم في أفكارهم ، فتجاملهم في غير نفاق ، وتقدرهم بلا تكلف ، وتأتي إليهم الذي يأتونه إليك ، فلن تجد مجتمعا راقيا مهذبا يمينك على سلوكك ، ويفسح صدره لآرائك ، وما شد من عزمي في تحرير هذه الرسالة إليك إلا أنني أعلم فيك استعداداً فطريا ، وسماحة ، وخلقا ، لا يمنعك أن تفيد من التجارب ما دامت شريفة القصد ، نبيلة الغاية ، فاسمع يا أخي ، ولا تضق بي ، أو تعط من فك ، أو تغضن من جبينك ، فما أريد إلا الخير . واعلم أن أحداً لم يوح إلى ، أو يعل علي ، وإنما أنا وحدي الذي ارتأيت كما رأيت ؛ أنا وحدي حتى لا أكون سببا في متاعب ذهنية ، كلانا في غنى عنها ، لأنني أحبك ، وأوثرك على سواك ، فإن تلاق رأيانا كان ذلك لي نجاحا ، وإن رأيت أنني أبعدت في الفهم ، وجرت في الرأي ، فأحب شيء إلى نفسي أن تبين ما بصدق اللهجة ، ونفاذ البصيرة ، وإخلاص الدفاع ، وكل ما أهدف إليه ألا أراك موضعا لمقالة ، أو ظنينا بجور ، وهذا ما يعنيني أن أتحدث معك في أمره ، أما سائر شأنك ، فلا أدس أنفي فيه ، لأنه سلوك شخصي قد يكون لك فيه تأويل أو مساغ ، ولا أدعي لنفسي عقلا أكبر من عقلك ، على كبر في السن ، وكثرة في التجارب ، وهأنذا صنعت .. فهل تجد هذه الرسالة منك أذنا صاغية ، وقلبا واعيا ، فتسوى أمرك ، وتدنو من أفهام الناس ، لتتقي أذاهم ، وتكتفي من ظنونهم ، وإلا فأين هو السلاح الذي أشهره في الدفاع عنك ، إن تطاير من أجلك حديث ، أو أثير حولك غبار ، وسلام عليك

محمد محمد الابشيهي

إلى الأستاذ حبيب جاماتي

قرأت كتابكم الذي صدر أخيرا في سلسلة كتب للجميع

بعنوان « أغرب مارأيت » فعنت لى بعض خواطر أسجلها فيما يلى : —

١ — حول تجارة الرقيق :

عنى الأستاذ جاماتى أن يكون تقدم الزمن منذ عام ١٩٣٠ قد خدم العبيد ضد النخاسين ولا أدرى لماذا لم يتتبع الأستاذ الفاضل أخبار تجارة الرقيق بعد هذا التاريخ !!

وبالأمس القريب وفى سنة ١٩٥٠ أتهم الكاتب الأمريكى لورنس جرسولد اليمن بتجارة الرقيق

فقد كتب مقالا عنوانه « ما زالت تستطيع أن تشترى جارية » وقد نشر هذا المقال فى إحدى المجلات الأمريكية ثم نشرته مجلة (وورلد) فى عدد سبتمبر سنة ١٩٥٠ وقد نقلت مجلة الفصول القراء المقال بأمانة تامة وقدمته إلى قرائها فى أقطار الشرق العربى . فانبرى لنقد المقال الأستاذ على بن على الأنسى اليمنى وذكر أن اليمن ليس بها أسواق للرقيق (١) . ومع احترامنا لرأيه بصدد اليمن .. وللحقيقة نقول إن كثيرا من المعلومات التى وصلت إلينا تدل على أن تجارة الرقيق لم يقض عليها القضاء الأخير . ولا يسعنا إلا أن نردد المثل العربى « وعند جهينة الخبر اليقين » ولعل تقدم الزمن كفيل بالقضاء على تلك التجارة الشائنة تماما فى المستقبل القريب

٢ — حول معجزات الهند :

سألنى صديق عزيز وهو بين مصدق ومكذب من معجزات الهند ولا سيما معجزة الحبل الهندى فقلت له : إن معجزة الحبل رآها ابن بطوطة الرحالة العربى القديم فى القرن الرابع عشر الميلادى وعاينها بنفسه بل وذكر خبرها فى كتابه عن رحلته المعروفة بتحفة النظار فى عجائب الأمصار وغرائب الأسفار

وبعد أفلا كان من الواجب أن يشير الأستاذ جاماتى ولو بكلمة واحدة إلى ابن بطوطة وما شاهده وهو فى صدد الحديث عن الموضوع نفسه

٣ — زرافة الباشا أولا :

إن من يقرأ ما كتبه الأستاذ حبيب جاماتى عن المسلة المصرية التى نقلت من الأقصر وتقوم الآن فى ميدان الكونكورد بباريس قد يظن أن الصلات لم تتوطد بين محمد على باشا عاهل مصر الكبير وبين فرنسا إلا فى سنة ١٨٣٠ وهو التاريخ الذى أهدى فيه محمد على الكبير مسلة الأقصر إلى عاهل فرنسا لويس فليب . وللحقيقة والتاريخ أقول إن العاهل الكبير تبادل الهدايا مع ملوك فرنسا قبل سنة ١٨٣٠ وأهم هذه الهدايا التى أرسلت إلى فرنسا وكان لها صداها زرافة كانت مناط إعجاب الفرنسيين وعرفت بزرافة الباشا

فحوالى عام ١٨٣٥ بسطت مصر سلطانها على الجزء الجنوبى من الوادى وخضعت لها كردفان وأمر والى هذا الإقليم — من قبل عاهل مصر — وهو إذ ذاك مختار باشا الفرسان السودانيين بصيد الزراف وقد استطاع مختار باشا أن يرسل إلى محمد على الكبير وكان بالإسكندرية فى ذلك الحين زرافتين صغيرتين على قيد الحياة

وقد استطاع دروفيتى قنصل فرنسا فى مصر بوسائله الخاصة أن يحصل على إحدى هاتين الزرافتين كهدية لفرنسا من عاهل مصر ولتكون تحت تصرف علماء متحف التاريخ الطبيعى بباريس . وقد وصلت هذه الزرافة إلى فرنسا سنة ١٨٢٧ وكانت مناط إعجاب الفرنسيين بل وتركت أثرا كبيرا فى الأدب الفرنسى فى ذلك الوقت ...

هذا وقد استفاض مسيو جبريل داردو (مدير وكالة الأنباء الفرنسية بالقاهرة الآن) فى الكلام عن رحلة زرافة الباشا وعن أثرها فى الأدب الفرنسى ودعم بحثه القيم بالوثائق والأسانيد، ويقع هذا البحث فى اثنين وسبعين صفحة من القطع الكبير، وقد نشر هذا البحث فى عدد يناير سنة ١٩٥١ من مجلة

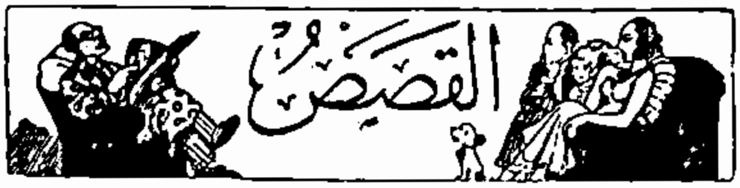
Revue des Conferences francaises en orient

وهى المجلة التى أخذت على عاتقها ذكر وبيان شتى الصلات التى تربط بين فرنسا والشرق وبخاصة بين فرنسا ومصر

ومن الأشياء التى أهديت إلى فرنسا كذلك عقب هذه الزرافة المعروفة بزرافة الباشا الزدياك أو دائرة البروج التى كانت بمعبد دندره .. وأخيرا تأتى مسلة الأقصر التى أهديت سنة ١٨٣٠

شفيق أحمد عبد القادر

(١) أنظر مجلة الفصول عدد نوفمبر سنة ١٩٥٠



عودة الروح

للكاتب الفرنسي تيودور دي بانفيل

استكملت السيدة هورتنس دافراي في ١٨٨٢ ربيعها العشرين، وليس في قولي «السيدة» تجاوزا مني ولا مينا. فقد كانت هورتنس زوجة، بل أرملة بائسة لا ولد لها يسهر عليها ولا قريب يؤويها إلا جدتها «مدام دي بريبل».. استقدمتها تلك الجدة لتشاطرها العيش في سكنها بشارع ليل. وكانت هورتنس تنشق — بقرب جدتها — آخر نسمات العيشة العائلية الهادئة تهب عليها في ونى وهدوء. قد مضى الآن حولان كاملان على وفاة جدتها الطيبة التي ماتت حزينة قلقة على مصير حفيدتها إذ تتركها وحيدة في غياهب الفقر وأمواج الحياة. إنها عمرت ثمانين عاماً رأت فيها من تحب يتزوجون، ومن تعرف يرحلون، ولم يبق منهم أحد تعهد إليه بحفيدتها البائسة

ولما أحست مدام دي بريبل بأجلها يقترب، رتبت أمرها في شهرها الأخير، كي لا تقلق بال حفيدتها. ولقد غالت الجدة في ذلك، فكانت ترمي أوراقا كثيرة في النار وتحفظ الأخرى. وكانت الجدة تحتفظ — طوال مرضها — بصندوق صغير في دولابها الكبير. وكانت تضع مفتاحه في خيط من الحرير تحت الوسادة الحائلة. وكثيرا ما كانت الجدة تمسك الصندوق ساعات طوالا، كأنما تريد أن تنتهي من أمره إلى حل، وتتخذ حيال ما فيه قراراً. ودهمتها سكرة الموت قبل أن تقرر مصيره أو تتخلص منه

واستشعرت السيدة دافراي قلقاً يساورها عندما عثرت يداها الباحثتان على الصندوق الصغير

وقررت أول الأمر أن تحرقه — أمانة منها وإخلاصا — دون أن تعرف ما فيه من أسرار. ولكنها لم تفعل ذلك خشية أن تضيع — بحرقه — أداء واجب عليها أداؤه، أو وصية لابد منها. وهكذا فتحت الصندوق وألفته مليئا برسائل جمة، لا تحمل العنوان على الأغلفة كما هي الطريقة الحديثة، ولكن تحمله على شرائح من ورق رفيع. وقد علمت — بعد أن بصرت بأول خطاب — أنها ليست رسائل جدتها مدام دي بريبل، ولكنها رسائل أم جدتها — السيدة إيودكسي تيرين. وقد رأت هورتنس تلك الجدة العتيدة. فإنها لم تمت إلا أخيراً في سنة ١٨٨٢. ولها من العمر خمسة وثمانون عاماً

على أنها تستطيع أن ترى خيالها كل حين إن أرادت، فأسرتها تحتفظ لها بصورة رسمها البارون جروس، في ميعة شبابها ووفرة صباها. وقد كان عن طريق غريزة ركبت فينا، نشعر بها ولا نستطيع أن نكيفها، أن رأت هورتنس دافراي بينها وبين صورة الجدة — التي صورت من ثلاثة وخمسين عاماً خلون — شبها قوياً. بل لتكاد — إذ تنظر إليها — ترى وجهها في مرآة صافية!

ذلك بأن الطبيعة يحلو لها في فترات مختلفة وفي أسرات خاصة، أن تعيد خلق وجوه درست وثوت بالتراب من أمد بعيد.. تعيد خلقها كما كانت، كأنها مثال يأخذ عدة أشكال من قالب واحد. ولكن المرء يسائل نفسه في تلك الأحوال: إلى أي حد يبلغ الشبه؟ أيقتصر على الوجه والخلقة؟ أم يسيطر على الأفكار والمشاعر؟ أم ينفذ إلى سواد الفؤاد؟! تلك مشكلة من مشاكل العلم الحديث رمينا بها فتفتح أمامنا آفاقا واسعة غير ذات بر ولا حدود

وقبل أن تقرأ السيدة دافراي أولى الرسائل لمحت سكة كبيرة تتدحرج في الصندوق بجوار جداره الرقيق. فالتقطتها، وتفقدتها، فإذا بها رسم ملازم شاب، من ضباط الدولة الأولى، ذي شعر وحف جعد، وعينين يلمع فيهما بريق الشهامة وبأس الشباب. وجبهة قسمتها ندبة جرح طولى إلى قسمين عريضين. ينبسط أكبرها من حاجبه الأيمن إلى منبت الشعر بوسط المحيا. وجبهته عامة جبهة شجاع جسور. وأدمنت هورتنس النظر في الصورة، فجذبها بريق العينين، وفتنها سحر الجمال، وأخضعها بأس الهوى! فاستشعرت في قلبها آلاما من المشاعر المتضاربة

المركبة ، آلافا من خوف وأخرى من سرور ، إنها تحب ! ولكن ويلها من تحب ! ؟ فتى مرت على وفاته حقب وأعوام ، وتوالت على قبره أحداث وزحام ! فتى دالت دولته ، وراحت صولته ، وقدر لها ألا تراه على الأرض حيا ! ... ولكن كثيرا ما لعبت الجذوة التي تلهمنا بالحقائق والأفكار ! وكثيرا ما كانت الحقيقة شيئاً مستحيلا ، فليس ضرورة أن يكون الشيء ممكناً حتى نقول بأنه حقيقة

وإنه لمن الضلال البعيد أن نقول بأن هورتنس قد فجأها الحب ، ولكنها كانت تشعر في قلبها بحب قديم ، له آلامه وآماله ، ولسبب ما خمد وانطفأ بل نزع من القلب والذهن انتزاعاً. ولكنه استعر فجأة ، وقفز إلى ذهنها وقلبها معاً يعذب هذا بالذكريات ، ويكوي ذاك بالشوق والألم

وتفقدت الرسائل فإذا بإمضاء واحد يذيلها جميعا . وقرأتها في شغف وجنون . ثم كانت لا تني عن القراءة والإعادة كأنها محمومة . ولم يكن عسيراً أن يجمع المرء خيوط القصة التي أنجبت تلك الرسائل

تزوجت جدتها السيدة إيوودكسي تيرين من أحد متعهدي الجيوش . وكان كهلا أنانيا ، أفسدته الخلاعة ، وأضواه المجون . وقد مكنتها مهنة زوجها من الاتصال بضباط الجيش . فهام بحبها ملازم شاب من جند نابليون ، يدعى بول فراند وجرفها تيار هواه . فلم تستطع أن تقاوم أو تتشبث . فسايرت التيار في هوادة وإخلاص . فكان جميلا أن ترى عاشقين شفهما الهوى وبرح بهما الغرام يتعاطيان كؤوس الوصل مترعة هنية ، وينهلان من منبع الحب الخالص ، فيحلمان بسعادة خالدة ، ونعيم مقيم . غير أنهما — طوال الوقت — يشعران بأجنحة الموت السوداء تصفق فوقهما كأجنحة الخفاش الأعمش ، ويانسان بمسوح الردى الطخياء تهددهما بالبعد والحداد

وسرعان ما تبددت الأحلام ، وحلت المخاوف ! لقد فرق الدهر المشتت بينهما أيام « أوسترلتز » وإيينا وإيلو ، أيام فريدلند ووجرام ... وكانا قليلا ما يلتقيان — في تلك الأعوام العصيبة — لحظات معدودات . ولكن فرانديير كان يختلس ما بين واقعتين أو ما بين نصرين فيسطر لها — وهو أشعث أغبر — آيات الحب والهيام . ويبثها وقدة الشوق وجذوة الهوى . يسطر لها رسالات مترعة أسى وعذاباً ، تقرأها الآن حفيدتها الصغرى بين دمع واكف وقلب خافق ، بين صدر يعلو ويهبط كالموج ، وأنفاس حرى تذهب وتجيء . كان من أجل إيودكسي — كما كان من أجل نابليون — أن خاض فرانديير المعارك الدامية ، وشرق في البلاد وغرب ، وقاسى كثيراً واصطبر . كان يريد أن ينصر العاهل حتى النفس الأخير ، وأن يكسب لإيودكسي عرشاً فخما

ومات في تلك الأثناء زوجها . وجن فرانديير الأمل ، وحن إليها ففكر في الرجوع إلى الوطن . وبينما الأمل ينمو ويوطد الجذور ، والشوق يستعر والقلب خفاق ، إذا به يقع في الميدان يتشحط في دمه المغرم ، وإذا برصاصة تخترق صدره العاشق وتسكت قلبه الخافق . فثوى في حزون سمولنسك الباردة وحيداً ، لا قلب يخفق له ، ولا دمع يترقرق في المحاجر أسى عليه . ونعى فرانديير زميل ائتمنه على سر قلبه وذات صدره . وكان خطاب الزميل مع الرسائل الأخرى في الصندوق الصغير

ما في هذا الأمر من شيء غريب . ولكن الغريب حقا أن يتراءى لهورتنس دافراي أن التوسلات والذكريات التي حفلت بها الرسائل ، وأن الجوى والهيام كل ذلك لها هي من دون جدتها إيودكسي تيرين . واندفعت روحها الظامئة ناشدة ذلك الحب ، تاركة وراءها الحقيقة ونواميسها ، وحلقت بالغرام في الخيال غافلة عن الواقع ونظمه ، وتمادت في ذلك فاستباحت لنفسها أن تخلق المعدوم وأن توجد المستحيل ! ولم تكتف بذلك بل وهبت نفسها لفرانديير هذا دون أن تفكر لحظة أنه مات منذ أمد بعيد ، في تيه المجد وضجة النصر المبين . واعتقدت أنه يوماً موافيها ، وأنها ملاقيته بعد أمد قريب أو بعيد ، وأنها مسلمة عليه ومصغية لحديثه الحنون ، ولم يخامرها في يقينها هذا شك ، ولا وجدت على عقيدتها غباراً ... رأت فأحبت فأغرمت فتعذبت ثم راحت تنتظر الحبيب بثقة واطمئنان !

لو رأى النائم المعجزات في حلمه لما استغرب ، لأن النفس تكون متطلقة من الواقع ونظمه ، والحقيقة وأشراطها . وكذلك لم تستغرب هورتنس دافراي — حينما كانت تزور مدام دي

سيمور — أن تعلن الخادم قدوم السيد بول فراندير !

رأته يدخل ، هو بعينه الذى أحبت وتحب : بول فراندير ! بول فراندير بشعره الوحف الجعد ، وعينيه السوداوين ، ثم بندبة الجرح فى جبهته العريضة ... لم يكن هناك فرق سوى أنه يرتدى زى ملازم من مدفعية الفوج الإفريقى الأول ... كلا ! لم تعجب مدام دفيراى إذ تراه ، فقد كانت تنتظره بصبر واطمئنان . على أن قلبها غاص فى حنايا صدرها البض ، وراح يحطم ضلوعها بخفقه الشديد ، وودت إن لم تكن بين ذلك الجمع من الرجال المتأنقين وتلك الثلة من النساء ذوات الأساور والحلى ، فتقفز كالغزال إليه ، ثم تغيب فى أحناء صدره الرحيب قائلة « هأنا ذى » !

وانحنى فراندير لعمته مدام دى سيمور . ثم يرى هورتنس فجأة ، فيبهت ، لا عرف لديه ولا نكر ، وغاض لونه واصفر وجهه ، واستطاع بعد لأى أن يعتمد على الحائط وأن يجر قدمه الواهنة إلى مخدع كان لحسن الحظ خاليا ، فتخاذل وارتمى على بساطه الثمين . ودهشت مدام سيمور من سلوكه الناشز عن العرف والتقليد ، فتعقبته إلى حيث تداعى يئن أنيناً . ودخلت المخدع ساعة رانت عليه صفرة الموت وغاب عن الوجود

واستدعت عمته طبيباً مشهوراً من أضيافها . ولكنها أحست — بغريزة المرأة — أن هناك سرا لا يحسن أن تفض غلفه لأحد غريب . فجثت على العليل تدلك رأسه وصدغيه ، وتنشقه بعضاً من ملح قوى مفيق . ثم رفعت رأسه براحتيها واضعة تحتها وسادة من حرير غال

ولما أن أفاق وثاب إليه الوعى ، دس يده فى جيب صداره وأخرجها تحمل رسماً على ورق قديم ، عليه قبلات والهة ، فأراه عمته ، ثم صاح فى فرح المجنون وطرفه غريق فى الدمع المتون : « أى بلانش ! بلانش ! إنها تحيا ! » فأجابته عمته : بلانش ! بالطبع ! إن هورتنس دافراى تحيا ، وهى فوق ذلك صديقتى . ولكن قل لى لم تدخل فى زى الدولة الأولى ؟ على أنك لم ترها مرة واحدة ! فما معنى تلك النوبة التى انتابتك من لحظة ؟ فقال فراندير :

— إنى لم أرها إلا الآن ولكن روحى هامت بها من زمن بعيد ، وأوسعتها حبا وعشقاً . وقد استقر حبها بين جوانحى وفؤادى ، وسرى بين لحمى وعظمى . لم يفارقنى ذلك الرسم منذ خلص إلى وتناهى من ثلاثة أعوام خلون . واصطحبنى فى الفتح والحروب ، فى النفق والخنادق ، فكان رسول السلام إلى قلبى الوله الجازع إذا ما اشتد النزال وحمى الوطيس ، وكان بشير الحصانة إذا ما رنق على الرؤوس الموت ليختار على أى يقع . كان فيض الأمل ونبع الحياة ، كان كل هذا برغم ما كنت أعلم عن موت صاحبته . ولكنى لا أملك من أمرى شيئاً . وكنت أعلل نفسى أنى ملاقيها فى جنان الرحمن حيث لا تعجز اللقيا ... ولم يكن خيالى يستبيح لنفسه — وهو الشرود الجموح — أن يتصورها حية فى عصرنا هذا . فهو إن صورها يصورها نائمة بجلال بين الورود والزهور فى جدثها العاطر . فيطير لبى شعاعا ، وتنسرق نفسى هياما وحبا !

— هذا حسن ! ولكنك لم تحدث لى من أمر الصورة ذكراً . كيف تناهت إليك ؟

— ذاك أمر بسيط ! فقد كان لدى أبى — فى مكتبه — مكتب مهجور . طلبته منه كى أستذكر عليه فأعطانيه ولم يمهل . وقال لى إنه من مخلفات — سمى — عمه الأكبر بول فراندير . كان ملازما فى جيش الدولة الأولى . ومات فى سمولنسك فى السابع عشر من أغسطس سنة ١٨١٢ . وكانت مفاتيح المكتب ضائعة فاضطررت إلى كسر أغلاقه ، وفى أحد أدراجه الخفية عثرت يداى المجدودتان بتلك الصورة المقدسة ، ولقد عشقتها من ذلك الحين

— حقا إن فى ذلك الحادث جانباً كبيراً من الغموض والإبهام ، وعلى أية حال فأنت شاب طليق وهى فتاة حرة . فلا مانع يفصلكما من الحب ويحرمكما الزواج

ولكن الأمانى كانت سراباً . فقد ادكر كل من بول وهورتنس صاحبه ، فتذاكرا العهود وجددا الغرام ، فنعما بجنة الحب لأمد قصير . ولكن بول ذهب فى فوجه إلى «تونكين» وهناك مات — كجده — برصاصة شقت الصدر وباتت فى الفؤاد ، أى بؤس وعذاب !

س . م